من التاريخ

«٢»

الأساطيل العربية

في البحر الأبيض المتوسط

تأليف

دكتور ابراهيم احمد العدوى

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

١٠٨ شارع كامل صدقى

مقدمة

يتمتع البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر بموقع جغرافي فريد ، جعله مطمح كل قوة تبغي لنفسها الازدهار والسلطان . ولكن لم تستطع أية قوة أن تنال الخلود الذى فاز به العرب باستقرارهم على شواطىء هذا البحر . فبينما اندثرت حضارات وانهارت دعائم أمم ازدهرت على جوانب هذا البحر ، ما زالت أقدام العرب راسخة إلى اليوم فى رقعة شاسعة ، تضم شواطىء الشام ومصر وشمال إفريقيا ، أى ما يقرب من نصف شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

ويعزى سر هذا الخلود إلى أن العرب اتخذوا أهبتهم لركوب البحر الأبيض المتوسط وفق خطوات منظمة مدروسة ، بعيدة عن الارتجال ، وذلك منذ أطلوا على مياهه فى القرن السابع الميلادى حاملين راية الإسلام . ويعالج كتاب « الأساطيل العربية » تلك المجهودات التى استطاع العرب القيام بها لبناء مجد بحرى لهم ، منذ قامت صفوة من قادتهم تدعو إلى بناء أسطول عربى فى البحر الأبيض المتوسط .

ولم يلبث هذا الأسطول العربى الفتى أن هزم بحرية الروم وانتزع منها سيادة البحر الأبيض المتوسط ، الذى زالت عنه صفة « بحر الروم » وصار بحيرة عربية . ولم تلبث الأساطيل العربية أن تعددت باهتمام العرب فى شمال إفريقية (بلاد المغرب) والأندلس ببناء سفن حربية أسهمت فى إعزاز مجد العرب فى البحر الأبيض المتوسط .

وقد نالت الأساطيل العربية الفوز الباهر بفضل شبكة واسعة

من القواعد البحرية ودور الصناعات ، التى سهرت على خدمتها ، وكذلك نتيجة إعداد طبقة ممتازة من الرجال البحريين الذين قادوا تلك الأساطيل فى براعة ومهارة إلى النصر المبين . وينتهى العرض التاريخى للفترة التى يتناولها هذا الكتاب عند القرن الرابع الهجرى ، الذى يعتبر حداً فاصلا بين عهد انفراد الأساطيل العربية بمركز الصدارة فى البحر الأبيض المتوسط وبين عهد التنافس الذى دب بينها وبين السفن الأوربية ، التى عمدت إلى حرمان تلك الأساطيل من مكانتها وقواعدها البحرية .

غير أن التراث الذى خلفه العرب فى ميدان البحر الأبيض المتوسط كان أصلب وأشد من أن تقتلعه محاولات المستعمرين الأوربيين ، وظلت سيرة المجد البحرى ، التى يرويها كتاب « الأساطيل العربية » الهاتف الذى يذكر الأجيال العربية بما نالوه من عزة وسؤدد على جوانب البحر الأبيض المتوسط ، والنبراس الذى يضىء لهم اليوم طريق استرداد تلك المكانة السامية ، وجعل البحر الأبيض المتوسط حرياً أن يصبح مرة أخرى بحيرة عربية .

القاهرة فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٥٧ — ابراهيم أحمد العدوى

يا معشرَ الإســـــلامِ فى أسطولِكمْ
عِزٌّ لَـكُمْ وَوِقَايَةٌ وَسَـــــلاَمُ

جُودُوا عَلَيْهِ بِمَالِـكُمْ وَاقْضـوا لَهُ
مَا توجِبُ الأَعْــلاَقُ والأرْحَامُ

لَوْ تَقْرِئُونَ صِـــغَارَكُمْ تَارِيخَهُ
عَرَفَ البَنُونَ المَجْـدَ كَيْفَ يُرَامُ

أحمد شوقى
(أمير الشعراء)

الفصل الأول

نواة الأسطول العربى

فى البحر الأبيض المتوسط

خط الدفاع البحرى

يعتبر القرن السابع الميلادى نقطة تحول كبرى فى تاريخ العرب السياسى والحضارى ، إذ خرجوا فى ذلك القرن من موطنهم الأصلى فى شبه جزيرة العرب حاملين راية الإسلام إلى جيرانهم من الأمم . وقد بهر العرب أنظار العالم إذ ذاك بحماستهم الشديدة فى نشر الدين الجديد ، وسرعتهم الخاطفة فى الاستيلاء على أهم بقاع العالم القديم ، الممتدة من نهر الفرات إلى وادى النيل .

على أن الدهشة التى أثارتها موجة الفتوحات العربية فى القرن السابع الميلادى لم تلبث أن تضاءلت أمام ما أظهره العرب من وعى بحرى ناضج فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم السياسى ، وقدرتهم على ركوب سفن البحار بنفس المهارة التى قادوا بها سفن الصحراء عبر الكثبان والرمال . ولم ينل العرب تلك المكانة فى عالم البحار عن طريق الصدفة أو تقدير المقادير ، وإنما وصلوا إلى مصاف الأمم البحرية الكبرى التى عرفها البحر الأبيض المتوسط عن طريق التجارب المضنية وتجنب الأخطاء

التى وقع فيها من سبقهم من أصحاب السلطان على شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

وكانت تتردد فى آذان العرب غداة استيلائهم على الشام ومصر فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى المحنة القاسية التى نزلت بالفرس بسبب إهمالهم لشئون الأسطول فى البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن الفرس كانوا قد استولوا على الشام ومصر سنة ٦١٤ م أى قبل الفتح العربى لهذين القطرين بنحو عشرين سنة تقريباً ، وتمادت بهم الآمال إلى الاستقرار على شواطىء البحر الأبيض المتوسط[1] .

ولكن غاب عن الفرس أن الروم أصحاب السيادة على البحر الأبيض المتوسط لن يغضوا الطرف عن أغنى أقاليمهم وهما الشام ومصر ، وأنهم لابد قائمون بحركة استرداد لمكانتهم فى شرق البحر الأبيض المتوسط . واستطاع الروم فعلا استعادة سيادتهم البحرية بفضل تقوية أسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط ، والاستفادة من إهمال الفرس لشئون شواطىء الشام ومصر ، وافتقارهم إلى أسطول يحمى تلك الشواطىء كذلك .

وتجلت أهمية الأسطول لكل من يرغب السيادة على البحر الأبيض المتوسط وتدعيم أقدامه على شواطئه حين ظهر الامبراطور هرقل على مسرح دولة الروم ، وأخذ يعبىء قواتها البحرية لطرد الفرس من الشام ومصر . إذ أعد الامبراطور هرقل حملة أقلتها سفن الروم من العاصمة

(١) كان الفرس يطمعون منذ أقدم عصورهم التاريخية فى الاستيلاء على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى ليدعموا مكانتهم التجارية فى آسيا ، وليجنوا ثمار موقعهم الجغرافى على الطريق التجارى الذى يصل بين الشرق والغرب . وكانت المحاولة السالفة الذكر آخر مجهوداتهم فى تحقيق أمانيهم قبل ظهور الإسلام .

« القسطنطينية » ، وأبحرت مباشرة إلى شواطىء الشام الشمالية . ثم نزلت قوات الروم فى المنطقة الممتدة بين شمال الشام ومنطقة قليقية من آسيا الصغرى لتتجنب الاصطدام المباشر بقوات الفرس البرية ، التى انتشرت طلائعها فى آسيا الصغرى[1] .

وآتت سياسة هرقل البحرية ثمارها فى إنقاذ دولة الروم ، واسترداد الشام ومصر فى سهولة ويسر . إذ ظن الفرس أن نزول قوات الروم فى شمال الشام مناورة حربية من هرقل لتطويق جيوشهم فى آسيا الصغرى ، ثم اندفاع تلك القوات مباشرة إلى المدائن عاصمة فارس ، والاستيلاء عليها فى غيبة القوات الفارسية المبعثرة فى بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط . ولذا سحب الفرس قواتهم على عجل من الشام ومصر ، وعادوا إلى بلادهم للدفاع عن العاصمة «المدائن» . وسار هرقل فى إثر القوات الفارسية مستعيداً سلطان بلاده على هذا الشطر الهام من البحر الأبيض المتوسط بفضل حملة بحرية واحدة[2] .

ولكن قبل أن يسترد هرقل أنفاسه ، وينعم بثمار انتصاره انطلق العرب سنة ٦٣٢ م من شبه الجزيرة العربية حاملين راية الإسلام ، واستولوا فى سهولة وسرعة فائقتين على الشام ومصر . وبهذا الفتح العربى استهل البحر الأبيض المتوسط صفحة جديدة من تاريخه الطويل . ذلك أن سيادة الروم البحرية وجدت فى العرب منافساً خطيراً ، أخذ ينازعها اسمهم الذى لصق طويلا بالبحر الأبيض المتوسط ، حيث عرف أجيالا وقروناً عدة باسم « بحر الروم » .

(١) Bury, A History of the later Roman Empire II, 224—230

(٢) Ibid : 231 — 222 .

[illegible] الفضل فى تجنب العرب للكارثة التى حاقت بالفرس إلى [illegible] الواقعية ، التى اتسمت بابتعادها عن الارتجال . ذلك [illegible] وا يسيطرون على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الممتدة [illegible] من شمالا إلى حدود برقة غرباً حتى أحسوا عظم المسئولية [illegible] عاتقهم وضرورة تأمين تلك السواحل . فعمد العرب أولا إلى تحصين [illegible] البحرية وكذلك الموانى الهامة وغيرها من المدن الساحلية التى يمكن للعدو التسلل منها إلى داخل البلاد .

ويمكن وصف تلك السياسة العربية بأنها سياسة بحرية دفاعية ، تستهدف تأمين الفتوحات العربية فى الشام ومصر . ذلك أن العرب لم يفكروا فى ذلك الوقت المبكر من فتوحاتهم فى ركوب البحر الأبيض المتوسط ، والإقدام على المغامرات البحرية التى لا يأمنون مغبتها . ولذا اكتفى العرب بوضع حاميات قوية فى المدن الهامة مثل اللاذقية وطرابلس وصور وصيدا وعرقة وجبيل وبيروت على الشاطىء الشامى ، وفى الاسكندرية وتنيس ودمياط والبرلس ورشيد على الشاطىء المصرى ، وفى ثغور بنطابلس أو المدائن الخمسة ، وهى المعروفة اليوم بإقليم برقة .

وظل العرب أمناء على سياستهم البحرية الدفاعية « فكلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها ما تحتاجه من الجند ، فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد »[1]. وتجلت تلك السياسة البحرية وقدرتها على حماية الشام ومصر حين قام الروم بأشد غارة لهم على هذين الإقليمين سنة ٢٥ هـ / ٦٤٤م .

[1] [illegible] البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣٤ .

وكانت الرأس المدبرة لتلك الإغارة هو امبراطور الروم قنسطانز الثانى الذى أراد أن يعيد بحملته البحرية قصة جده هرقل مع الفرس [illegible] العرب إلى أسطول بحرى ، وعمد إلى [illegible] الاستيلاء عليها ، وجعلها قاعدة لإخراج العرب من مصر [illegible] قنسطانز [illegible] فى خطته البحرية بإرسال حملة أخرى تغير على [illegible] الشام فى نفس الوقت الذي يهجم فيه أسطوله على الإسكندرية [illegible] الضغط على العرب بين التعاون فيما بينهم .

وقد عبأ قنسطانز أسطوله من خيرة رجال دولته بإقليم آسيا الصغرى ، وبالغ فى الإنفاق على العدد والعتاد ليحقق أهدافه فى سهولة وسرعة . ولم يجد قنسطانز عقبات فى إعداد السفن اللازمة لأنه بادر عقب تخلصه من مشاكله الداخلية بإصلاح دور الصناعة ولاسيما فى الجزر القريبة من شواطىء الشام . وبذلك وجدت سلطات الروم كافة الوسائل التى أتاحت لها إرسال أسطول قوى للاغارة على مصر والشام .

وتولى الحملة البحرية على الإسكندرية مانويل أعظم قادة الروم ، والذى سبق له الدفاع عن الاسكندرية إبان هجوم العرب عليها سنة ٦٤١ م . واستطاع قائد الروم أن يفاجىء الحامية العربية بالإسكندرية وأن يتغلب عليها ، برغم شدة مقاومتها ، بسبب درايته بمسالك هذا الميناء الهام[1] . غير أن شدة المقاومة العربية أتاحت للخليفة عمر بن الخطاب فى الحجاز أن يبعث الأمداد إلى مصر ، وعلى رأسها عمرو بن العاص الذى سبق له بدوره الاستيلاء على مصر .

[1] ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٥٧ .

واستطاع عمرو بن العاص مطاردة الروم من شمال الدلتا وألجأهم إلى الإسكندرية التى تحصنوا بها ، واستماتوا فى الاحتفاظ بها . وقد نصب الروم المجانيق على أسوار الإسكندرية ، واخذوا يمطرون العرب بوابل من القذائف . وعانت القوات العربية الكثير من المتاعب فى حصارها للإسكندرية ، واستبد الحنق بعمرو بن العاص حتى أقسم لئن استولى على المدينة ليهدم أسوارها ، ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان[١] .

وكان السبب فى قوة حركة مقاومة الروم بالإسكندرية هو وجود أسطولهم فى مياه الإسكندرية ، يزود المقاتلين بالعدة والعتاد ، ويقف حارسا حاميا لظهورهم . ومن ثم طال حصار عمرو بن العاص للاسكندرية وكان حصارا أشق وأضنى من حصاره الأول لتلك المدينة . ولم يتمكن عمرو ابن العاص من اقتحام المدينة إلا بعد أن أرشده أحد المصريين الموالين للعرب على أحد الأبواب الضعيفة الحراسة . وأعمل السيف فى قوة الروم المقيمة بالاسكندرية ، والتى خر قائدها مانويل نفسه قتيلا . واستطاع الجند العرب كذلك مفاجأة سفن الروم فى ميناء الإسكندرية وتدمير عدد كبير منها.

وفى نفس الوقت الذى هزم فيه عمرو بن العاص الروم بالإسكندرية كانت حاميات الشام العربية تقاوم إغارات سفن الروم على المدن الساحلية واستطاعت تلك الحاميات برغم قلة عددها أن تصد هجمات الروم وتنزل بها خسائر فادحة . وعندما جاءت الأنباء بهزيمة الروم فى الإسكندرية أقلعت السفن عائدة ، بعد أن فشلت بدورها فى مساعدة مانويل على الاستيلاء على مصر . وبذلك استطاع العرب القضاء على حملة الروم البحرية ، ولكن بعد عناء وتضحيات جسيمة ، جعلتهم يضعون سياسة جديدة لمواجهة أساطيل الروم[٢] .

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) Bury, op. cit. II, 288.

دعاة الأسطول العربى

بعد انتصار العرب على الروم فى الاسكندرية والشام قام نفر منهم يدعو إلى نبذ السياسة البحرية الدفاعية ، لأنها لم تعد كفيلة بالمحافظة على سلامة ممتلكاتهم ، وأن مقتضيات الظروف تتطلب بناء أسطول عربى فى البحر الأبيض المتوسط يرد عن الشواطىء العربية غائلة الروم وهى فى عرض المياه ، قبل مفاجأتها للسواحل . وجاءت تلك الدعوة العربية عنوانا على أن قوة بحرية جديدة حان ميعاد ميلادها ، وأن البحر الأبيض المتوسط يشاهد فى أمة العرب مظاهر تختلف تمام الاختلاف عن دولة الفرس .

وكان صاحب الدعوة الأولى إلى بناء الأسطول العربى فى بحر الأبيض المتوسط هو معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، ثم عضده فى تلك الدعوة والى مصر عبد الله بن أبى سرح ، الذى خلف عمرو بن العاص على ولاية تلك البلاد فى عهد الخليفة عثمان بن عفان . ويرجع السبب إلى سبق معاوية فى الدعوة إلى ركوب البحر الأبيض المتوسط ، التجارب القاسية التى مر بها أثناء فتح إقليم الشام ، مما جعل سياسة العرب البحرية الهجومية تستند إلى أسس سليمة ولشدة المراس والتمحيص[١] .

---

(١) ينتسب معاوية بن أبى سفيان إلى البيت الأموى ، صاحب [illegible] الأبيض المتوسط . ذلك أن بنى أمية أدركوا أهمية هذا البحر [illegible] الإسلام إلى الشام ، والاتصال بدولة الروم سيدة هذا الإقليم . وكانت [illegible] ممتلكات فى إقليم الشام زادت من روابطهم بمياه البحر الأبيض المتوسط [illegible] الأمويون والبيزنطيون ص ٣٠ — ٣٢) .

تلقى معاوية الدرس الأول فى أهمية البحر الأبيض المتوسط وضرورة أسطول عربى فى مياهه حين اضطلع بعبء فتح مدن الشام الساحلية. [illegible] يزيد، أحد قادة العرب فى الشام، قد استعصت عليه المدن الساحلية لأنها [illegible] عن متانة حصونها ومنعتها كانت متصلة بالبحر مباشرة، تتلق الأمداد من دولة الروم، وكذلك المؤن التى تضمن لها البقاء والمقاومة. [illegible] ترك يزيد لأخيه معاوية مهمة إخضاع تلك المدن الساحلية وعاد إلى دمشق(1).

وجد معاوية أن خير طريقة للاستيلاء على مـــدن الشام الساحلية هو تشديد حلقة الحصار البرى عليها، وانتهاز الفرصة المواتية لاقتحام أسوارها، لأن أسطول الروم يقف من خلف تلك المدن ويشد من أزرها. وتجلت سياسة معاوية إزاء المدن الساحلية الشامية حين اتجه إلى فتح قيسارية وطرابلس الشام. وكانت المدينة الأولى قد استعصت على عمرو بن العاص نفسه، ذلك القائد الماهر الذى فتح منطقة فلسطين. إذ بعد مغادرة عمرو بن العاص فلسطين متجها لفتح مصر، سار معاوية إلى هذه المدينة وألق عليها الحصار.

وظل معاوية مثابراً فى حصاره أمام مقاومة المدينة وعنادها، إذ كانت مثل سائر المدن الشامية الأخرى على الساحل تتلق الأمداد وآلات الدفاع من الروم عن طريق البحر، وصدت هجمات العرب المتوالية. وظل معاوية على حصاره لقيسارية عدة سنوات حتى تمكن أخيراً من اقتحامها سنة ١٩هـ/٦٤٠م بفضل خيانة يهودى بها يدعى يوسف. إذ أتى ذلك [illegible] ليلا ودلهم على طريق يمكن مهاجمة المدينة منه، بعد أن أخذ

(1) البلاذرى، نفس المرجع، ص ١٣٤.

منهم أماناً لنفسه وأهله. ونجح معاوية بذلك فى اقتحام قيسارية، التى كان لسقوطها فى يد العرب فرحة كبرى عند الخليفة عمر بن الخطاب(1).

وأظهر معاوية مهارة فائقة فى فتح مـــدن الشام الساحلية حين قصد الاستيلاء على طرابلس الشام، إذ كانت تلك المدينة [illegible] دمشق ومفتاح حياتها الاقتصادية، ثم إنها بذت سائر مدن الشام [illegible] ومنعتها، حيث [illegible] ميناء عظيم اتسع لعدد كبير من السفن [illegible] طرابلس كذلك [illegible] البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وتصل أمواجه إلى أسوارها، على حين يحيط بسورها خندق عظيم. وزاد فى منعة هذه المدينة وسهولة حصولها على الأمداد وجود أربع جزر صغيرة تقع إحداها وراء الأخرى فى مياه البحر القريبة منها(2).

وجه معاوية إلى طرابلس سفيان بن مجيب الأزدى، ووضع خطة محكمة للاستيلاء عليها تتفق وافتقار العرب إلى أسطول بحرى فى ذلك الوقت. وكانت تلك الخطة تهدف إلى تضييق الحصار على طرابلس براً ومحاولة منع وصول الأمداد إليها من سفن الروم. فبنى القائد الأموى حصنا فى مرج يقع على أميال من طرابلس وضيق على أهلها الخناق. ولما اشتد الحصار كتب سكان المدينة إلى إمبراطور الروم يطلبون منه إرسال أمداد أو إيفاد سفن يهربون عليها. ولما لم يكن ثمة مناص من التسليم بعث إمبراطور الروم بسفن حملت الجند فى جنح الليل، وخلت حصون المدينة من المدافعين عنها، وتم لمعاوية بذلك الاستيلاء على هذا الميناء الهام(3).

(1) البلاذرى، نفس المرجع، ص ١٤٧؛ Miur, The Caliphate, 124.
(2) Le Strange, Palestine under The Muslims. 248.
(3) البلاذرى، نفس المرجع، ص ١٣٣.

وإذا كان معاوية بن أبى سفيان قد بذل فى فتح المنطقة الساحلية من إقليم الشام جهوداً ذات « بلاء حسن وأثر جليل » كما شهد له بذلك قادة العرب فى الشام ، فإنه خرج من تلك العمليات الحربية بنتيجة هامة ، كانت السبب الرئيسى فى بناء الأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط . فقد أدرك معاوية أن بقـــاء العرب واحتفاظهم بممتلكاتهم فى الشام ومصر رهن بالاستيلاء على جزر البحر الأبيض التابعة للروم ، والتى كانت قواعد بحرية خرجت منها الأمداد إلى مدن الشام أثناء حصار العرب لها .

وبدأ معاوية يعمل على تحقيق أهدافه البحرية بعد أن انفرد بولاية الشام على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ؛ حتى غدت فترة ولايته على الشام الحجر الأساسى فى صرح الأسطول العربى فيما بعد ، وفاتحة المجد البحرى العربى عند الاطلاق . وتجلت الخطوط الرئيسية للبرنامج البحرى الذى رسمه معاوية حين أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى غزو جزيرة قبرص مبيناً له شدة خطورة هذا المعقل التابع للروم على سلامة مدن الشام ، إذ جاء فى خطابه : « يا أمير المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص[١] » ، ثم ختم خطابه بعد هذا الوصف الدقيق المؤثر بالسماح له بغزو تلك الجزيرة .

وأراد الخليفة عمر بن الخطاب أن يعرف آراء قادة المسلمين فى طلب معاوية [illegible] قبرص ، ولا سيما أنه يحمل العرب على اقتحام ميدان البحر ، [illegible] يستوجب الدرس والروية ، فضلا عن أن هذا الموضوع الذى [illegible] موضوع جديد لابد من عرضه على كبار رجالات العرب [illegible] الخليفة عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص والى مصر

(١) [illegible] تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ، ص ٥١ .

إذ ذاك ، لما لهذه الولاية من شواطىء على نفس البحر الأبيض المتوسط مثل الشام ، ولأنها كذلك تعرضت للاغارات البحرية التى شنها الروم على السواحل .

وجاء رد عمرو بن العاص وصفاً دقيقاً لطبيعة البحر وركوب مياهه ، وما يلاقيه المرء فى ذلك من صعاب . فكتب إلى الخليفة : « إنى رأيت خلقا كبيراً يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ... هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق[١] » .

ولم يكن عجباً أن يؤثر الخليفة عمر بن الخطاب التريث فى إجابة طلب معاوية بعد أن وقف على رأى عمرو بن العاص فى البحر وراكبه .

وبذلك ظهرت عدة آراء إزاء ركوب البحر الأبيض المتوسط ، أحدها ينادى به معاوية ، وهو ضرورة بناء أسطول عربى يدافع عن أرض العرب فى الشام ومصر ، والثانى ينادى به عمرو بن العاص ، وهو تجنب المخاطرات البحرية ، والأخير اعتنقه الخليفة عمر بن الخطاب وهو يؤثر الوقوف على الحياد إزاء تلك المشكلة الخطيرة . وكان رائد الخليفة فى اتخاذ هذا الموقف الحيادى هو الحرص على سلامة المسلمين ، حيث قال لمعاوية فى الرد على طلبه بغزو قبرص : « تا لله لمسلم أحب إلى مما حوت الروم[٢] » .

ولكن معاوية لم يكن بأقل من الخليفة حرصاً على سلامة المسلمين ، وإنما كان أشد الولاة إحساساً بالخطر الذى يلوح فى الأفق [illegible] بالشام وكذلك مصر بسبب وجود أسطول الروم [illegible] وافتقارهما إلى وسائل الدفاع . وآثر معاوية أن [illegible]

(١) الطبرى ، المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٥٢ .
(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ص ٥٢ .

حريا على ما اتصف به من دهاء وحيلة ، ولا سيما إزاء موقف
الجلاد اللذين ظهرا بصدد رغبته فى الهجوم على جزيرة قبرص
معاوية مرة أخرى إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعرض عليه سوء
حال سواحل الشام وما هى عليه من خراب وافتقارها إلى وسائل الدفاع
الحربية .

ولم يتردد الخليفة عمر فى أن يطلق يد معاوية لإصلاح حال السواحل
بما يراه كفيلا بسلامتها من « مرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة
الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها[1] » . واستغل معاوية هذا التصريح
واتخذه خطوة أساسية يبنى عليها مشاريعه البحرية . فآثر أن يحصن المدن
الساحلية ويزودها بالقوات المحاربة ، بما يجعلها قواعد فى المستقبل تنقل منها
الجنود بحرا إلى أى مكان يشاء .

ووضع معاوية للمدن الساحلية نظاما عرف بالرباط ، وهو ما يقصد به
الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض
العدو . واعتنى معاوية بهذا النظام حتى أصبح جزءا مرتبطاً أشد الارتباط
بالجهاد أو الحرب المقدسة ، ذلك أن الرباط اجتذب إليه كل الأتقياء
المتحمسين العاملين دائماً على إعزاز الإسلام ونصرته ، وكان لهذه الظاهرة
السالفة أثر كبير فى تكوين الجنود الأول الذين عملوا فى الأسطول العربى
فى عهده المبكر .

وجاء إعداد الرباط عملا يتفق مع خطة معاوية البحرية ، والتى تستهدف
تأمين السواحل أولا ، وإعداد قواعد بحرية للمستقبل ثانيا . فكان الرباط

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

مكانا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لغارات أساطيل
الروم ، ولتكون ملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق التى يغزوها العدو .
وخصصت حاميات الرباط لإنذار الأهالى فى المناطق الساحلية بأن
يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر سفن الروم فى المياه الإقليمية . فكان
الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم ومخازن للأسلحة
والمؤن ، وبرجاً للمراقبة . غير أن الرباط لم تلبث أن اتسعت وازدادت
أهميتها حتى صارت قواعد للهجوم البحرى وشن الغارات .

واكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى ولى الخلافة عثمان بن
عفان ، إذ خطا منذئذ خطوة ثانية فى متابعة سياسته البحرية ، وتشجيع
الناس على النزوح إلى المناطق الساحلية لتنمو عندهم ملكة ركوب البحار .
وساعد معاوية على تحقيق خطته أن الخليفة أمر بمنح كل راغب فى الإقامة
بالمدن الساحلية إقطاعات من الأرض يستغلها ويتمتع بخيراتها . فترتب على
ذلك ازدياد العمران بالسواحل ، وإقبال الناس عليها للتمتع بامتيازات
الإقامة بها ، دون أن يأبهوا بمخاوف التعرض لاعتداءات سفن الروم .
ومما ساعد على طمأنينة سكان السواحل أن معاوية أعد جيشاً ثانيا فى المدن
الساحلية للدفاع عنها إلى جانب قوات الرباط ، كما دأب على أخذ أرض من
يتخلف عن الغزو ، وإعطائها للجند المقيم على حراسة السواحل أثناء
الخروج للاغارة[1] .

وتعتبر سياسة منح الاقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة فى سلم
السياسة البحرية الدفاعية التى رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٣٥ .

الابيض المتوسط فى عهد الخليفة عثمان بن عفان . إذ أتم بفضل هـذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التى أنشأ فيها أساطيله فيما بعد . وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالى بعلبك وحمص وأنطاكية سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢م إلى صور وعكا وغيرها من المدن الساحلية[1] . وكذلك أصلح معاوية الحصون البحرية ، ولا سيما حصون عكا التى خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص .

وبسط معاوية اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية ، فمنح الجند أراض كذلك فى أنطرسوس ومرقية وبلنياس ، واهتم اهتماما خاصاً برباط عسقلان والجند الموكلين بحمايتها[2] . وأخيراً جدد بعض الحصون فى المدن التى خربت معاقلها القديمة ، كما فعل فى مدينة جبلة . ومن ثم آتت سياسة الاقطاعات ثمارها ، فعمرت الثغور البحرية لأن « الناس انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية[3] » على حد قول المؤرخين المسلمين .

وجنى معاوية ثمار هذه السياسة التمهيدية حين استطاع أن يظفر من الخليفة عثمان بن عفان بتصريح يبيح له غزو قبرص ، إذ سمح له الخليفة بالقيام بالغزو البحرى على شرط ألا يكره أحدا على ركوب البحر ، وأن [illegible] من المتطوعة فقط . ولم يلق معاوية عناء فى اجتذاب الجند [illegible] معه فى حملاته البحرية ، إذ كانت المدن الساحلية عامرة بالعامرين [illegible] دانوا بثمار الاقطاعات وامتيازاتها ، وتطلعوا إلى خوض غمار

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٠

الميدان البحرى تحت راية معاوية ، مخلدين اسمهم فى طليعة الحملات الإسلامية البحرية .

وإذا كان لمعاوية الفضل فى بناء السياسة البحرية التى غرست نواة الأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط ، فإن والى مصر زمن الخليفة عثمان بن عفان ، وهو عبد الله بن أبى سرح يعتبر الساعد الأيمن لمعاوية فى مجهوداته لخلق الأسطول العربى . ذلك أن عبد الله بن أبى سرح خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر . وبذلك اختفت شخصية عمرو الذى عارض ركوب البحر .

وكان عبد الله بن أبى سرح من المتحمسين لبناء أسطول عربى فى البحر الأبيض المتوسط ، ومن ثم وضع موارد مصر البحرية ورجالها فى خدمة معاوية ، والمساهمة معه فى سائر الحملات البحرية التى أعدها لصد الروم . وبلغ من إيمان عبد الله بن أبى سرح بضرورة إنشاء أسطول عربى ، أنه خرج بنفسه فى الحملات البحرية ، ليضرب المثل الأعلى لسكان [illegible] على تفانيه فى نصرة البحرية العربية .

وتعتبر مجهودات عبد الله بن أبى سرح الخطوة الإيجابية [illegible] الأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط . فإذا كان معاوية [illegible] الخطوات التمهيدية لبناء السفن وشحنها بالمقاتلة من العرب [illegible] عبد الله بن أبى سرح هو الذى بدأ بناء السفن الأولى [illegible] نواة الأسطول العربى . ذلك أن مصر كانت أيام [illegible] استيلاء العرب عليها مشهورة بمهرة صناع السفن فيها [illegible] التى أخرجت الأعداد الوافرة من سفن الروم . فتابع عبد الله [illegible]

[illegible] السفن فى مصر ، وبعث بها إلى الشام التى كانت خالية إذ ذاك [illegible]

وقد ساعدت العوامل الطبيعية على تعضيد التعاون البحرى بين كل من معاوية والى الشام وعبد الله بن أبى سرح والى مصر . ذلك أن مصر فقيرة فى أخشابها التى تصلح لبناء السفن على حين تكثر بالشام الغابات التى تزود مصر ودور صناعتها بما تحتاجه من أجود الأخشاب . ومن ثم كانت مصر تستورد من الشام الأخشاب وتردها سفناً شامخة تعلى من راية العرب فى قواعد الشام البحرية .

وظلت مصر وحدها مصدر بناء السفن العربية حتى سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م إذ شن الروم فى تلك السنة غارة شديدة على سواحل الشام ، وكانت تلك الإغارة من العنف بحيث جعلت معاوية يفكر فى إنشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها إلى جانب دور الصناعة بمصر ، حتى يجد لديه أساطيل على أهبة الاستعداد إذا ما دمّر العدو السفن الرابطة فى قواعد الشام . ولذا أمر معاوية فى نفس السنة التى حدثت فيها إغارة الروم على الشام بجمع الصناع والنجارين وإرسالهم إلى عكا ، التى وقع اختياره عليها لينشىء بها أول دار لصناعة السفن بالشام[1] . وكانت عكا تستطيع الحصول على ما يلزمها من أخشاب لبنان ، التى اشتهرت بصفة خاصة بصلاحيتها للمجاديف[2] .

وبذلك استطاع دعاة الأسطول العربى أن ينجحوا فى تحقيق مآربهم بفضل مثابرتهم وتعاونهم ، وخرجت طلائع الأسطول العربى إلى البحر الأبيض المتوسط تعلى من شأن العرب ، وتعلن ميلاد مجدهم البحرى .

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٢٤ .

(٢) Semple, The Geography of the Mediterranean, 840.

مكتبة الوحدة بغداد

الفصل الثانى

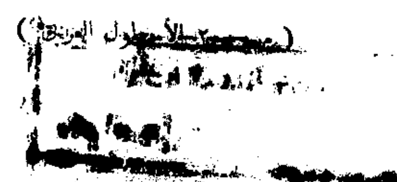
السيادة البحرية

التعاون البحرى بين الشام ومصر

شاهدت مياه الشطر الشرقى من البحر الأبيض المتوسط النشاط الأول للأسطول العربى ، وزحفه نحو المجد والسؤدد . ذلك أن فتح العرب للشام ومصر جعلهم يشرفون على تلك المياه التى امتلأت إذ ذاك بقواعد الروم أعداء العرب الألداء ، وكان لابد من قيام صراع مرير بين العرب والروم على سيادة هذا البحر ، الذى يعد مصدر السلطان والمنعة لكل قوة تبغى لنفسها الازدهار والبقاء .

واستهل العرب نشاطهم البحرى فى ذلك الشطر الشرقى من البحر الأبيض المتوسط استهلالا طيباً موفقاً ، أذهل الروم وجعلهم يدركون قوة الأسطول العربى الذى ولد فتياً . وكان السبب فى تلك البداية البحرية الرائعة هو ما فطر عليه العرب من قدرة على الاستفادة مما يقع فى أيديهم من تجارب الأمم السالفة لهم . ومن ذلك أن العرب كلما فتحوا قطراً من الأقطار درسوا نظمه الإدارية ومظاهره الحضارية ، وأبقوا على الحسن فيها وإزالة ما لا يتفق منها والوضع العربى الجديد .

وعند ما فتح العرب الشام ومصر وجدوا لها نظاماً بحرياً جيداً ، يمكن



اتخاذه أساساً لقوتهم البحرية الجديدة . ذلك أن التقسيم الإدارى لدولة الروم قبل ظهور الإسلام جمع بين الشام ومصر فى العمليات البحرية ، بحيث قضى بتعبئة أساطيلهما معاً لإخضاع العناصر التى تشق عصا الطاعة على سلطات الروم فى أى بلد من البلاد التابعة لهم فى البحر الأبيض المتوسط .

واتخذ العرب من تلك الظاهرة السالفة أساساً للتعاون البحرى بين الشام ومصر فى نضالهم ضد الروم . فاختصت مصر أولا ببناء سفن الأسطول العربى ، حيث كانت دور الصناعة فيها آمنة ، وبعيدة عن إغارات الروم . ثم اختصت الشام باستقبال السفن التى صنعت فى مصر ، حيث تتجمع فى موانيها ، وتشحن بالمقاتلة والعتاد ، لأن قواعد الشام البحرية تقترب من أراضى الروم وجزرهم بالبحر الأبيض المتوسط ، ويسهل بذلك مهاجمة الروم من تلك القواعد الشامية .

وعندما قامت فى الشام دور الصناعات لبناء سفن الأسطول العربى كذلك ، دخل التعاون البحرى بين مصر والشام فى دور جديد . ذلك أن البحارة والمقاتلة الذين عملوا فى الأسطول العربى جاءوا من سكان الشام ومصر ، وحاربوا جنباً إلى جنب دون أية تفرقة . وكان اعتماد العرب فى تلك الفترة المبكرة من نشاط أسطولهم على أقباط مصر وسكان الشام القدامى ، الذين مهروا فى ركوب البحار وتدربوا على فنون القتال فيه . ولم يسهم من العرب فى تلك الحملات البحرية الأولى غير اليمنيين ، ولا سيما جماعاتهم وقبائلهم التى استقرت فى الشام قبل الفتح العربى ، إذ أن لعرب الجنوب ماض بحرى تليد ، وخبرة بركوب البحار .

وبذلك جمعت العوامل الجغرافية بين الشام ومصر منذ فجر الفتح العربى

لهما ، وقاما بدور مجيد فى خدمة الأسطول العربى[1] . وفضلا عن ذلك لم ينفك عرى ذلك التعاون البحرى بين الشام ومصر ، والذى وضع أساسه معاوية بن أبى سفيان وعبد الله بن أبى سرح أيام ولايتهما لهذين الإقليمين على عهد الخليفة عثمان بن عفان . فبعد نجاح معاوية فى الحصول على الخلافة وتأسيس البيت الأموى حرص كل الحرص على أن تكون مصر على اتفاق تام مع الشام ، وأن يكون ولاتها مخلصين تمام الإخلاص للبيت الأموى .

وتجلت سياسة معاوية فى تدعيم التعاون بين مصر والشام أثناء الحروب الأهلية التى نشبت بينه وبين على بن أبى طالب من أجل الخلافة . إذ صمم معاوية على بقاء مصر فى التبعية له ، وانتزاعها من قبضة أتباع على بن أبى طالب . فعهد معاوية إلى عمرو بن العاص فاتح مصر الأول وداهية قادة المسلمين بالاستيلاء عليها مقابل الحصول على خراج مصر سبع سنين . وباستيلاء عمرو على مصر استطاع معاوية أن يبقى على التعاون البحرى بين مصر والشام ، وتنظيمه بما يحقق للأسطول العربى الناشىء الفوز والنصر .

وتابع خلفاء معاوية الاهتمام بسياسة التعاون بين مصر والشام ، ولا سيما أنهم صاروا سادة الدولة الإسلامية ، وفى استطاعتهم تحقيق [illegible] فى سهولة ويسر ، بسبب تبعية مصر لهم . فانتدب خلفاء معاوية لإدارة شئون مصر ولاة من أفراد البيت الأموى نفسه أو من أشد الناس إخلاصا

---

(١) يعتبر الوضع الجغرافى لمصر والشام ذا أثر كبير فى بناء أية [illegible] الأبيض المتوسط . وقد عرف تلك الحقيقة كل من حكام مصر والشام [illegible] حيث حرص كل منهما على بقاء العلاقات الطيبة وأسباب حسن الجوار [illegible] الظاهرة منذ أيام الفراعنة فى مصر والفينيقيين فى الشام ، كما [illegible] العربى لمصر والشام . وتجاهد مصر وسوريا اليوم على تحقيق [illegible]

ووفاء لهم . وبذلك ظلت مصر على اتصال دائم بشئون الشام ، كما ظهر التعاون البحرى بينهما جلياً طوال العصر الأموى .

ولقد كشفت بعض أوراق البردى التى وجدت بمصر ، وترجع إلى ولاية قرة بن شريك ، الوالى الأموى على مصر سنة ٩٠ هـ ، كشفت تلك الأوراق عن حرص الأمويين على المحافظة على التعاون البحرى بين الشام ومصر . ثم أن تلك الأوراق أظهرت حقيقة أخرى هامة ، وهى اشتراك المصريين إلى جانب أهل الشام فى الحروب البحرية ، وثناء المصريين على روح الأخوة التى وجدوها من بحارة الشام أثناء إقامتهم فى ديارهم .

ويعتبر هذا التعاون البحرى بين مصر والشام حجر الزاوية فى صرح الأسطول العربى فى صدر نشاطه ، والسبب فى الانتصارات الباهرة التى أحرزها هذا الأسطول منذ أيامه الأولى . ثم إن التعاون البحرى المصرى الشامى صار كذلك النموذج الذى نهج العرب على منواله كلما اتسعت بهم الفتوح ، لأنهم لمسوا فوائده وثماره الطيبة فى ميدان البحار .

فتح قبرص

وبدأت مظاهر التعاون البحرى بين مصر والشام تتجلى حين صمم معاوية على استخدام الأسطول العربى الناشىء فى الاستيلاء على جزيرة قبرص ، التى كانت محور مكاتباته مع الخليفتين عمر وعثمان ، يلتمس منهما السماح له بغزوها . وكانت استعدادات معاوية البحرية لغزو قبرص تتناسب مع أهمية الحملة وضخامة أهدافها . إذ كانت هذه الجزيرة من أقدم المعاقل فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وحرصت القوى المتنافسة فيه على إبقائها فى دائرة نفوذها .

ومنذ بزغت شمس الحضارات فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى والصراع مستمر على سيادة جزيرة قبرص ، التى تعتبر حجر الزاوية فى قوة أية دولة تصل إلى مركز الزعامة فى بلاد الشرق الأدنى[١] . وتجلت هذه الظاهرة منذ أيام تحتمس الثالث إمبراطور مصر الفرعونية حتى العصر الحاضر ، أيام أحداث العدوان الثلاثى (الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى) على مصر . إذ حرصت الدول الكبرى التى عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى على السيطرة على قبرص ، واستخدامها فى تحقيق مآربها وأهدافها .

وتستمد جزيرة قبرص أهميتها من موقعها الجغرافى الذى يوحى للناظر أنها أشبه بمدفع يدوى (مسدس) فوهته مصوبة إلى إقليم الشام[٢] . وإلى جانب ذلك تحتل الجزيرة ركنا ممتازاً فى الزاوية الشمالية الشرقية من البحر

---

(١) Hill, History of Cyprus I, 1.
(٢) Semple, op. cit, 201.

الأبيض المتوسط ، يجعل لها سهولة التحكم فى مياه هذا الشطر الشرقى من البحر بما يطل عليه من البلاد ، إذ يمكن للمرء أن يرى من قبرص بالعين المجردة آسيا الصغرى والشام ، ويبحر منها مباشرة ، وفى وقت قصير ، متجهاً إلى بيروت أو بور سعيد أو الاسكندرية[١] .

غير أن أحداث قبرص اتصلت اتصالا مباشراً مع إقليم الشام ، وارتبط مصيرها بأحوال القوى التى ظهرت فى هذا الإقليم سواء فى مشاريعها الحربية أو التجارية ، إذ يقترب طرف جزيرة قبرص الشرقى من خليج الاسكندرونة الذى يقع خلفه الممر الجبلى الهام الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى شمال العراق . وكان هذا الطريق من أهم المسالك التجارية التى عبرتها قوافل التجار المحملة بالمنتجات الشرقية إلى أسواق البحر الأبيض المتوسط .

وأدرك معاوية أهمية هذه الجزيرة وضرورة الإسراع بالهجوم عليها بسبب إغارات الروم على الشام ، واتخاذهم جزيرة قبرص محطة تموين فى الطريق ، وملجأ يعتصمون به حين تدفعهم الأحداث إلى الانسحاب . ودلت أحداث الحملة التى أعدها معاوية لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ، على الأغراض التى حملت المسلمين على البدء بالإغارة على هذه الجزيرة ، كما أن معاوية حرص على اختيار كبار الشخصيات الإسلامية لمصاحبته فى هذه الحملة ليكسب أولى حملات الأسطول العربى مظهر الجهاد الحق الرائع .

حشد معاوية أساطيله وقواته فى ميناء عكا ، وكانت السفن جميعها من مصر ، على حين اشترك مع الجند العرب كبار رجال الشام وغيرهم

(١) Hill, op. cit. I,

من مشاهير قادة العرب مثل عبادة بن الصامت . واتسمت هذه الحملة بخروج النساء معها ، حيث سجلت المرأة العربية إسمها بمداد الفخر فى أولى حملات الأسطول العربى على جزر البحر الأبيض المتوسط . إذ اصطحب معاوية معه زوجته فاختة ، كما أخذ عبادة بن الصامت كذلك امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية .

وكان الخليفة عثمان بن عفان هو الذى أمر معاوية بأن يأخذ زوجته معه ليضمن صدق عزيمته فى الإغارة على جزيرة قبرص ، وليتأكد من قربها من الشام على نحو ماذكره معاوية فى مكاتباته ، فجاء فى خطاب الخليفة إلى معاوية : « فإن ركبت البحر ومعك إمرأتك ، فاركبه مأذوناً لك ، وإلا فلا[١] » .

ولم يكن معاوية فى حاجة إلى أن يقـــدم الدليل على صدق مشاريعه الحربية ، وأمله فى عظمة الأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط . فأبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله بعد انتهاء شتاء سنة ٢٨ هـ / ٦٤٩ م ونزل على ساحل قبرص مسجلا بذلك أول عبور حققه العرب لمياه البحر الأبيض المتوسط . وشاءت الأحداث أن تجعل هذه الغزوة رمزاً على اشتداد الوعى البحرى عند العرب رجالا ونساء ، فقد استشهدت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت على أرض قبرص ، إذ حين رست السفن العربية على الشاطىء وأخذ الجند ينزلون منها ، تقدمت أم حرام لتركب [illegible] نفرت وأوقعت أم حرام حيث لقيت حتفها ، مسجلة بذلك اسمها [illegible] صفحة دونها الأسطول العربى فى مياه البحر الأبيض المتوسط [illegible]

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٥٩ .

أم حرام فى أرض جزيرة قبرص ، وعرف قبرها منذئذ باسم « قبر المرأة الصالحة[١] » .

وبعد أن أنزل العرب عدتهم وعتادهم إلى الشاطئ أرسلوا إلى أهالى قبرص يخبرونهم بأهدافهم ، وهى أنهم لم يأتوا طمعاً فى جزيرتهم ، وإنما ليتفقوا معهم على مافيه سلامة الشواطئ العربية على المياه الشرقية من البحر الأبيض المتوسط . غير أن سكان قبرص أبوا تحت ضغط الروم الدخول فى مفاوضات مع العرب واعتصموا بأسوار مدنهم . فتقدمت القوات العربية نحو العاصمة قنسطنطينا (Constantina) ، التى كانت غاصة بالسكان ، وبها جميع ثروات الجزيرة وذخائرها . وبعد حصار قصير اقتحم العرب هذه المدينة واستولوا على كنوزها ، وأخذوا كثيراً من الأسرى . واضطر حاكم العاصمة ، أو أركونها إلى عقد صلح مع العرب[٢] ، دلت شروطه على العوامل الحقيقية التى دفعت العرب إلى بناء أسطولهم فى البحر الأبيض المتوسط ، وجعل قبرص الهدف الأول لقوتهم البحرية الناشئة .

صالح أهالى قبرص العرب على أن يدفعوا لمعاوية جزية سنوية قدرها ٧٢٠٠ دينار ، على نحو ما يؤدونه كل عام كذلك لدولة الروم ، وتعهدوا أيضاً بألا يساعدوا الروم فى إغاراتهم على أراضى الشام ، وألا يطلعوهم على أسرار تحركات الأسطول العربى . كما قبل أهل قبرص أن يزودوا العرب بأنباء أية حملة يعدها الروم ضد شواطئ الشام ومصر . وبذلك التزم أهالى قبرص بمقتضى أول إغارة بحرية للأسطول العربى ، بالوقوف على الحياد التام فى النزاع بين العرب والروم على سيادة البحر الأبيض المتوسط . ذلك

(١) البلاذرى ، نفس المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٦ ؛ البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠

أن العرب لم يلزموا أهل قبرص بتقديم أية مساعدة للأسطول العربى أثناء إغارته على أرض الروم ، « فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ، ولم ينصرهم أهل قبرص ، ولم ينتصروا عليهم[١] » .

وعاد بذلك الأسطول العربى مدوناً أول سطر فى سجل النشاط البحرى الطويل الذى خاضه فى سبيل إعزاز العروبة والإسلام . ثم إن هذا النصر البحرى الأول أعلا من روح العرب المعنوية وأزال ما اتصفت به أحاسيسهم من تهيب لركوب المياه ، ذلك الخوف الذى سجله أحد العرب ممن شجعه بعض أصحابه على ركوب السفن إذ قال :

فلله رأى قادنى لسفينة ... واخضر موّار السرار يمور

ترى متنه سهلاً إذا الرياح أقلعت ... وإن عصفت فالسهل منه وعور

فيا ابن بلال للضلال دعوتنى ... وما كان مثلى فى الضلال يسير[٢]

واضطلع الأسطول العربى بعد إغارته الأولى بمراقبة جزيرة قبرص ، ليتأكد من صدق أهلها فى الوفاء بالتزاماتهم ، وليحول دون الروم وبين اتخاذها قاعدة لهم . وفى سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م أخل أهل قبرص فعلا بشروط الصلح ، وأمدوا الروم بسفن ساعدتهم على مهاجمة الشواطئ العربية بالشام . فصمم معاوية على استخدام أسطوله مرة أخرى ليحرم الروم نهائياً استغلال جزيرة قبرص وأهلها . وكان الأسطول العربى الذى خرج فى العام التالى لفتح قبرص سنة ٣٣ هـ / ٦٥٤ م ، يتكون من خمسمائة سفينة وعدد كبير من الجند . واستطاع الأسطول العربى الاستيلاء على الجزيرة عنوة ،

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .

(٢) محمد كرد على ، خطط الشام ، ج ٥ ، ص ٣٤ .

برغم المقاومة التي لاقاها ، ولقن أعداء العرب أول درس قاس جزاء إخلالهم بالشروط والمعاهدات[1] .

وصارت قبرص منذ ذلك الوقت قاعدة دائمة للأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط . إذ حرص معاوية على وضع قوات نظامية بها تدافع عن الجزيرة وتحمى ظهر الأسطول العربى بها . فكان يقيم فى قبرص جيشاً يتكون من اثنى عشر ألف رجل من الجنـــد النظامى ، وأجرت لهم الدولة الرواتب . ثم أتبع معاوية هذه الخطوة بنقل جماعة من أهل بعلبك إلى قبرص ، وأغراهم على البقاء بها بمنحهم الرواتب ، حتى يقلل من أخطار الروم فى مهاجمة الأسطول العربى فيها[2] .

ويعزى تشدد معاوية فى معاملة أهالى قبرص بعد هذه الحملة الثانية إلى رغبته فى وضع حد نهائى لتقلب أهوائهم ، وتكرار مساعداتهم لأسطول الروم . وكان موقف أهل قبرص من نشاط العرب البحرى مثار جدل وتشعب فى الآراء بين قادة العرب ، ولا سيما نقضهم لشروط الصلح ، فقال أحدهم فى مناقشاته : « ما وفى لنا أهل قبرص قط[3] » ، وأشار آخر بإنزال أشد العقوبات بهم مستشهداً ببعض السوابق على عهد الرسول ، قائلا : « إنه من نقض عهداً فلا ذمة له[4] » .

غير أن معاوية آثر ألا يأخذ بتلك الآراء العنيفة ، ووجد فى احتلال قبرص سبيلا لتدعيم الأسطول العربى ، وتجنيب أهل قبرص الضغط الشديد

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .
(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٠ .
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٤ .
(٤) نفس المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

الذى تعرضوا له من قبل الروم . وساعد معاوية على تلك تنفيذ السياسة الرحيمة ما قاله نفر آخر من رجالات العرب ، إن : « أهل قبرص أذلاء مقهورون ، يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم ، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم[1] » .

ولذا جاء احتلال الأسطول العربى لجزيرة قبرص حلا لمشكلة حماية الشواطىء العربية بالشام ومصر ، وقضاء على المخاوف التى ساورت العرب عن قوة الروم البحرية . إذ صارت تلك الجزيرة الهامة قاعدة من قواعد الأسطول العربى ، تنطلق منها السفن العربية لصد سفن الروم قبل أن تهجم على شواطىء الشام ومصر ، وتجنب الحاميات المقيمة على تلك الشوطىء أخطار الهجات المفاجئة .

وفى نفس الوقت أكسبت حملة قبرص العرب تجارب بحرية واسعة ، وجعلتهم يتطلعون إلى سائر الجزر الأخرى القريبة من شواطئهم . وبذلك صار العرب قوة يخشى بأسها الروم ، ويرهبون الأسطول العربى الفتى ، الذى أخذ ينطلق نحو السيادة والمجد .

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

الاستيلاء على جزر الروم

فى شرق البحر الأبيض المتوسط

كانت الإغارة التى شنها الأسطول العربى على قبرص بداية نشاط بحرى عربى اتسم بطابع الإغارات صيفاً وشتاء على جزر الروم ، التى يخشى العرب خطرها ، أو التى قد ينبعث منها أذى يصيب شواطىء الشام ومصر . وأثبت العرب فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم البحرى فهماً جيداً لطبيعة الجزر التابعة للروم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز استراتيجية هامة ، ولشل حركات الروم البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وأتاحت هذه السياسة البحرية للأسطول العربى ميداناً واسعاً ، ذلك أن الجزر تنتشر فى الشطر الشرقى من البحر الأبيض المتوسط بحيث تقسمه إلى بحار داخلية صغيرة ، يتصل بعضها ببعض عن طريق مضايق وفتحات صغيرة تتحكم فى مداخلها أطراف تلك الجزر . وغدت هذه المضايق أشبه بعنق الزجاجة ، تكفل للمسيطر عليها تمام السيادة على ما يليها من بحار داخلية ، وما يطل على هذه البحار من أرض وبلاد[1] . ومن ثم سارت حركات الأسطول العربى إزاء تلك الجزر وفق خطوات منظمة مرسومة ، تهدف أولا تأمين سلامة الفتوحات العربية من الجزر القريبة والمباشرة لأراضيهم ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عدد من المضايق البحرية لسد الطريق فى وجه أساطيل الروم . وأظهر

(١) Semple, op. cit, 41

أمراء البحار العرب فى سبيل تنفيذ تلك الأهداف من المهارة والجلد ما رفعهم إلى مصاف كبار رجال البحار الذين عرفهم التاريخ .

ومن ذلك أنه استرعى نظر قادة العرب أثناء إغارتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى أرواد[1] بالقرب من ساحل الشام بين مدينتى جبلة وطرابلس . ولم يكن أول داع للأسطول العربى ، وهو معاوية ، بالشخص الذى يتهاون فى ترك أى معقل للروم يهدد سلامة بلاده ، أو يدعه شوكة فى جانب ولايته . فكانت جزيرة أرواد تتمتع بشهرة عالية منذ أقدم العصور ، برغم ما بدت عليه من ضآلة الشأن فى تلك الفترة الأولى من نشاط الأسطول العربى فى مياه البحر الأبيض المتوسط . فقد لاحظ استرابون الجغرافى القديم[2] ، أن أهل أرواد يحترفون القرصنة على النقيض من سائر البلاد القريبة منهم ، والتى اتخذت لنفسها الطريق القويمة فى الاشتغال بالتجارة لتدعيم رخائها الاقتصادى . فكان أهالى جزيرة أرواد يستغلون ماحبتهم به الطبيعة من مركز جغرافى ممتاز فى ميدان التجارة ، وأبدوا جشعاً فى تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق ميدان القرصنة المخيف . وقد جعلتهم هذه الأمور أهلا يتسمون بالغدر ، وبالبعد عن مواضع الثقة والتقدير .

وعقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها . فأعد الأسطول العربى لمهاجمتها سنة ٢٨ هـ ، أى فى العام التالى لعودته من الإغارة على جزيرة قبرص فى المرة الأولى . واستطاع الأسطول العربى

(١) تختلف هذه الجزيرة عن جزيرة أرواد التى تقع بالقرب من القسطنطينية ، والتى عرفت باسم كزيكوس (Cyzicus) فى المراجع الأوربية .

(٢) استرابون جغرافى يونانى ، زار مدن الشرق سنة ٢٥ ق . م ، وعرف بدقة الملاحظة والاعتماد على السلطات الرسمية فى البلاد لجمع المعلومات .

السيطرة على شواطئ تلك الجزيرة ، وإنزال الجند العرب بها . ولكن أهل أرواد رفضوا الإذعان والتسليم ، واعتصموا بقلعة الجزيرة على الرغم من وساطة أحد الأساقفة ويدعى ثوماريخوس (Thomarichos) ، الذى رأى أن يبصر سكان هذه الجزيرة بمغبة الإصرار والعناد .

وكانت خطة العرب البحرية تسير على أساس مسالمة أهالى جزر البحر الأبيض المتوسط أولا ، فإن أبوا فالقتال حتى النصر . ولذا عاد الأسطول العربى على أن يهجم على أرواد مرة ثانية فى العام التالى(١) . وفى سنة ٢٩ هـ هجم الأسطول العربى على جزيرة أرواد ، وعلى متنه قوة عظيمة من الجند . واستطاع العرب بذلك الاستيلاء على هذا المعقل الخطر ، وألزموا جميع أهالى أرواد بإخلاء جزيرتهم تماماً جزاء لهم على عنادهم(٢) . ولم يكن هذا التصرف العربى قاسياً ، وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهمهم لطبيعة أهالى تلك الجزيرة ، التى اتسمت بالغدر .

وهكذا لم يقم الأسطول العربى بنشاطه البحرى المبكر عفواً ، أو نتيجة خطط مرتجلة ، وإنما سار العرب فى اعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف أولا إلى حماية ممتلكاتهم ، ثم إقصاء الروم عن أى مكان تتجمع فيه أساطيلهم لمهاجمة أرض العروبة . وكانت آية هذا التفكير العربى السديد هو اتجاه الأسطول العربى للهجوم على جزيرة صقلية ، إذ يبدو أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على إقليم الشام ومصر . ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة لأساطيل الروم التى انسحبت من قواعدها بالشام ومصر بعد الفتح العربى

(١) Bury, History of the later Roman Empire, II, 289.

(٢) Bury, op. cit, II, 289.

لها ، ومركزاً تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحرى بين أساطيلهم فى مصر والشام .

وكانت صقلية بحكم موقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط الشرقى ، إذ هى تقسم البحر الأبيض المتوسط عامة إلى قسمين رئيسيين ، وتشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق ميسينا ، ومضيق صقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبى وشمال أفريقيا(١) . ثم إن جزيرة صقلية استمدت من كل بلاد الروم البعيدة عن متناول الأسطول العربى مساعدات جعلتها أعظم قاعدة لأسطول الروم فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت مصر أول من أدرك خطورة اتخاذ أساطيل الروم قاعدة لها فى صقلية . ومن ثم تكاتف الأسطول العربى المصرى والشامى فى الهجوم على تلك الجزيرة لتقليم أظافر الروم وبث الرعب فى نفوسهم . وقام الأسطول العربى من موانى الشام تؤازره القوات البحرية العربية المصرية سنة ٣٢ هـ/٦٥٢ م ، وذلك لمهاجمة صقلية . ونزلت الحملة البحرية بالشاطئ ومعها المجانيق والعرادات ، وأعملت التدمير فى حصون الجزيرة الساحلية .

وكانت القوة التى يحملها الأسطول العربى تستهدف تلقين الروم درساً قوامه أن يد البحرية العربية الناشئة قادرة على أن تبطش بهم فى أى مكان ، وأنها تقف لهم بالمرصاد . فهجمت القوات العربية على معاقل الروم فى صقلية ، وألجأت حامياتها على الانسحاب داخل الجزيرة . ثم أتبع العرب انتصارهم بالإغارة ليلا على القرى والمدن القريبة من الساحل ، وعادوا أخيراً مظفرين

(١) Semple, op. cit, 72.

إلى الشام[1] . وكان قائد هذه الحملة البحرية العربية معاوية بن حديج الكندى الذى اشتهر بجرأته وشجاعته .

وقد توالت إغارات الأسطول العربى بعد ذلك على جزيرة صقلية حيث خرجت وحداته تارة من الشام وتارة من مصر ، حتى صار مركز أسطول الروم ضعيفاً ، ولا تقوى سفنه على صد الأسطول العربى واشتهر من أمراء البحار العرب الذين أغاروا على صقلية فى تلك الفتر المبكرة من نشاط العرب البحرى عبد الله بن قيس الدرقى ، الذى أخذ من تلك الجزيرة عدداً كبيراً من أصنامها الذهبية والفضية[2] .

وسار الأسطول العربى بعد ذلك من نصر إلى نصر ، إذ انقلب من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم ، ورفع لواء العروبة خفاقاً على مياه البحر الأبيض المتوسط فاتجه الأسطول العربى شطر ردوس ، أهم جزر بحر إيجه وأعلاها مكانة فى تجربة الروم ، بسبب صناعة السفن بها . وتعتبر تلك الجزيرة أول حلقة فى سلسلة أرخبيل بحر إيجة من ناحية الشرق ، وتمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد اثنى عشر ميلا تقريباً من ساحل آسيا الصغرى[3] . وبذلك أهلها هذا الموقع لأن تكون خطراً جاثم على أطراف الشام الشمالية المتاخمة لحدود الروم بآسيا الصغرى .

وفى سنة ٣٣ هـ / ٦٥٤ م سار الأسطول العربى من موانى الشام تحت قيادة جنادة بن أمية الأزدى لفتح ردوس[4] . واستطاع أمير البحر الأموى

---

(١) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 62.

(٢) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٣) Encye. of Islam (art Rhodes)

(٤) Lammens, La Syrie, 65.

الأسطول العربى فى شرق البحر الأبيض المتوسط

أن يستولى على تلك الجزيرة عنوة ، والتى وصفتها المراجع العربية بأنها : قطعة فى البحر ... من أخصب الجزائر ، وهى نحو ستين ميلا ، فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة[1] . واهتم العرب بتدعيم تلك القاعدة البحرية الجديدة فى ردوس ، فبنوا بها حصناً منيعاً ، وجددوا أفراد الحامية العربية بها من حين إلى آخر ، حتى تبقى قوتهم وروحهم المعنويه عاليتين .

ووصل نشاط الأسطول العربى كذلك إلى جزيرة كريت أو إقريطش كما سماها بذلك العرب . وكان قائد الأسطول العربى الذى هاجم تلك الجزيرة هو جنادة ابن أمية الأزدى ، الذى سبق له فتح ردوس . على أن جزيرة كريت كانت من الضخامة بحيث يصعب على البحرية العربية الاستيلاء عليها فى تلك الفترة المبكرة من تاريخها الحربى . ولذا اكتفى جنادة بن أمية بما أصابه من فوز فى إغارته وعاد بأسطوله إلى الشام[2] .

وأظهر العرب بذلك مقدرة بحرية فائقة جعلت جزر البحر الأبيض المتوسط الشرقى تحت رحمة أسطولهم الفتى . على أن تلك الإغارات البحرية أتاحت للعرب ميدانا تدربوا فيه تدريبا واسعا ، ساعدهم على الفوز فى أعظم موقعة بحرية عرفها تاريخ البحر الأبيض المتوسط فى العصور الوسطى .

---

(١) البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

وقعة ذات الصوارى

٣٤هـ — ٦٥٥م

أو تقرير مصير البحر الأبيض المتوسط

كانت سلسلة الانتصارات البحرية الأولى التى أحرزها الأسطول العربى سبباً فى قيام معركة فاصلة بين العرب والروم تقرر فيها مصير البحر الأبيض المتوسط . وكانت دولة الروم هى البادئة بالعدوان ، بسبب رغبة الامبراطور قنسطانز الثانى فى القضاء على قوة العرب البحرية فى صدر حياتها .

وكان الإمبراطور قنسطانز الثانى يؤمن بأن المقادير قد ادخرته لإنقاذ دولته من ضعفها ، ودفع خطر الأسطول العربى عنها . ذلك أنه جاء إلى العرش عقب فترة قاسية ، فقدت فيها دولة الروم أغنى أقاليمهـــا فى الشام ومصر ، وأعظم جزرها فى قبرص ورودس ، كما وقع أفراد البيت المالك فى القسطنطينية نهباً للأحقاد والمؤامرات .

وقد ترقى قنسطانز فى تلك الفترة القاسية التى سادت دولة الروم عقب وفاة جده هرقل ، وشارك فى مؤامراتها ودسائسها ، حتى استطاع أخيراً أن ينفرد بالعرش سنة ٦٤٣ م[1] . وقد خلقت منه تلك الحياة رجلا نشطاً يقظاً محباً للاعتماد على نفسه . فبادر قنسطانز بإعداد الوسائل التى تمكنه من المحافظة على وحدة بلاده والقضاء على طلائع البحرية العربية التى هجمت على دياره .

(1) Bury, op cit, II, 281, 237

ورأى قنسطانز ألا سبيل إلى محاربة الأسطول العربى قبل تدعيم قوة الروم البحرية وبعث ماء الحياة فى قواعد [illegible] البحرية . وكانت دولة الروم تعتمد على إقليم آسيا الصغرى فى الحصول على السفن والجند ، فضلا عن خبرة أمراء البحار . ومن ثم اتجه قنسطانز الثانى إلى هذا الإقليم للقضاء على الفتن والقلاقل التى سادته . ذلك أن إقليم آسيا الصغرى كان محط أنظار الثائرين على سلطات الروم وملاذ الطامحين إلى السلطان . واستطاع قنسطانز الثانى أن يعيد الطمأنينة إلى تلك البلاد بعد أن أطاح فيها بالمشاغبين من محبى الفتن[1] ، وضمن لأسطوله مورده التقليدى من السفن والرجال .

وكذلك عمد قنسطانز إلى تدعيم قوته البحرية فى شرق البحر الأبيض المتوسط بالمحافظة على البقية الباقية من قواعد أسطولة البحرى هنـاك . وكانت جماعات السلاف القاطنة فى بلاد اليونان قد أغارت على سواحل بحر إيجة ، ونشرت الاضطراب بين سكانها . ولكن قنسطانز استطاع التغلب عليها ، وإعادتهـا إلى التبعية والطاعة لسلطانه[2] . وبذلك ضمن قنسطانز الثانى خلق تعاون بحرى بين آسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وأعاد بناء أسطول قوى عمد إلى اتخاذه سبيلا لطرد العرب من مياه البحر الأبيض المتوسط ، واسترداد سيادة الروم على ذلك البحر .

وعجل قنسطانز باستخدام أسطوله حين ترامت إليه فى سنة ٦٥٥ م أنباء استعدادات بحرية هائلة يعدها معاوية بن أبى سفيان والى الشام إذ ذاك ، لضرب القسطنطينية نفسها عاصمة الروم . وجهد قنسطانز على أن يتلافى هذا الخطر العربى المقبل على عاصمته قبل اقترابه منها ، وعول على الخروج قاصداً

(1) Bury, op cit, 387.
(2) Ibid 292.

الشام ليدمر الأساطيل العربية هناك قبل إبحارها من قواعدها .

وفى الفترة التى أسرع فيها قنسطانز بإعداد أسطوله ، نشط وكلاء الروم بالشام لعرقلة استعدادات العرب البحرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وكان معاوية قد حشد معداته البحرية فى مدينة طرابلس الشام استعداداً لقيام الحملة البحرية . ولكن شخصين مسيحيين من مدينة طرابلس من عملاء الروم أسرعا إلى سجن المدينة ، وكان به عدد كبير من أسرى الروم ، وفتحا أبوابه وأطلقا سراحهم . وتابع العميلان ومعهم أسرى الروم عملهم بمهاجمة دار الحاكم العربى بطرابلس وقتله هو وأتباعه ، ثم أحرقوا العدد والعتاد التى بذل معاوية فى جمعها كثيراً من الجهد والعناء ، ثم فروا جميعاً إلى آسيا الصغرى[١] .

وإذا كان وكلاء الروم قد نجحوا فى تنفيذ خطتهم بطرابلس ، فإن الأسطول العربى ظل سليما ، لم يمسسه شىء . وبذلك أعاد معاوية حشد قواته ، على حين وصلت سفن من مصر إلى سواحـــل الشام ، وخرج الأسطول العربى المصرى الشامى قاصداً القسطنطينية . وعندما وصل الأسطول العربى إلى ساحل ليكيا بآسيا الصغرى ألقى مرساه عند فوينكس Phoenix ، حيث بلغه نبأ اقتراب أسطول الروم ، على رأسه الإمبراطور قنسطانز نفسه[٢] .

ودلت استعدادات أسطول الروم على أن قنسطانز قد صمم على وضع حد لنشاط البحرية العربية وكسر شوكتها نهائياً ، على حين دلت المجهودات العربية على أن الأسطول العربى صار حقيقة واقعة ، ليس من السهل النيل

(١) Finlay, History of Greece I, 377 ; Bury, op cit, II, 290.

(٢) Bury, op cit, 290

منه ، فضلا عن أن التعاون البحرى بين الشام ومصر قد بلغ أوجه فى تلك الفترة المبكرة من نشاط العرب البحرى . فقد خرج على رأس أساطيل مصر واليها نفسه عبد الله بن أبى سرح ، الذى خلد اسم مصر فى خدمة العرب من أجل نيل أعظم المعارك البحرية الفاصلة فى تاريخ البحر الأبيض المتوسط .

وكان قنسطانز قد « خرج فى جمع لم يجتمع للروم مثـــله منذ كان الإسلام[١] » ، على حد قول المراجع العربية . فكان أسطوله يتألف من خمسمائة سفينة ، مزودة بآلات الحرب ، راع العرب منظرها ، ولا سيما الذين سبق لهم أن اشتبكوا مع الروم فى معارك بحرية . ووصف أحد المشتركين فى الحملة العربية شعوره حين تقابل الأسطول العربى مع سفن الروم قائلا : « فالتقينا فى البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط[٢] » .

وكانت الرياح غير ملائمة حين التقى الجمعان فى البحر ، فقضى العرب والروم ليلتهما انتظارا لما يسفر عنه الصباح ، وأخذا يستعدان فيها ، ويعملان على تقوية روحهما المعنوية . فبات العرب ليلتهم يصلون ويدعون الله ، على حين قضى الروم ليلتهم يضربون بالنواقيس[٣] . وفى صبيحة اليوم التالى دارت المعركة ، واشترك فيها الإمبراطور قنسطانز نفسه ، حيث أخذ يصدر من سفينته تعليمات لقتال العرب ، ويتابع منها الأنباء بانتظام عن سير المعركة .

بدأ العرب القتال باستخدام الأقواس والسهام ، فأدرك قنسطانز تفوق جنده عليهم ، لأن المسلمين يجيدون هذا السلاح فى الحروب البرية فقط .

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ص ٦٩ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

وأن الموقف الآن بحرى ، وليس برياً ، وأن ذخيرتهم سوف تنفد سريعاً . وتحقق ما رآه قنسطانز ، إذ اضطر العرب إلى استبدال الأقواس والرماح التى نفدت بالحجارة ، وقذف العدو بها . وهنا أيقن قنسطانز مرة أخرى أن الفوز حليف أسطوله .

غير أن العرب حين رأوا نفاذ ذخيرتهم من الحجارة كذلك ، وأن العدو مازال بعيداً عن متناول سفنهم ، وأنه يراوغ ويماطل لإنهاك قواهم ، ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض وقذفوا خطاطيف فى البحر ، جذبوا بها سفن الروم إليهم ، ثم اتخذوا من ظهور السفن المتلاحمة ميادين قتال أشبه بميادين البر . وحين وصلت أنباء تلك الخطة الجديدة إلى الإمبراطور قنسطانز أدرك فشل حملته ، وأن الهزيمة لاشك محيقة بجنده[١] .

وتحقق استنتاج قنسطانز ، إذ وثب العـــرب على الروم بالسيوف والخناجر ، وأعملوا فيهم التقتيل ، واشتد الصراع وكثر القتلى ، حتى وصف شاهد عيان هذه المعركة قائلا : « رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما[٢] » . وقد أبدى الفريقان المتحاربان من صنوف التفانى فى الواجب ومن ضروب الشجاعة ما سجلته مراجع العرب والروم على السواء .

ومن ذلك أن العرب نسوا فى غمرة الحرب مخاوفهم ، واستماتوا فى الدفاع عن سفينة القيادة التى أقلت والى مصر عبد الله بن أبى سرح . فقد عمد الإمبراطور قنسطانز حين علم بخطة العرب الجديدة إلى نشر الفوضى

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٦٠ ؛
Kremer, Orient under the Caliphs 354.

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

صفوفهم بالقضاء على سفينة القيادة عندهم . فأمر جنده بقذف خطاف علق بسفينة أمير البحر العربى عبد الله بن أبى سرح ، وأخذ الروم يجذبون المركب العربى إليهم .

وكاد الروم ينجحون فى أسر مركب القيادة العربى لولا شجاعة أحد جنود العرب ويدعى علقمة ، إذ رمى هذا الجندى نفسه على السلاسل التى كانت تجذب سفينة القيادة العربية ، وأخذ يعمل فيها القطع رغم ما تعرض له من ضربات العدو وسهامه . وكلل عمل علقمة بالنجاح إذ قطع السلسلة وأنقذ سفينة القيادة العربية من الوقوع فى الأسر .

ونال هذا الجندى العربى ثناء زوجة أمير البحر التى تسمى بثينة ، حيث كانت على ظهر السفينة أثناء القتال . وقد شاءت الأقدار فيما بعد أن يظفر ذلك الجندى بزواجه من بثينة بعد وفاة زوجها[١] .

وأظهر الروم فى تلك المعركة تفانياً فى الدفاع عن سفينة قيادتهم حين دارت عليهم الدائرة ، إذ بعد نجاح العرب فى إنقاذ سفينة قيادتهم هجموا على الروم بشدة واقتحموا السفينة المقيم عليها الإمبراطور ، وأعملوا القتل فى جندها ، وكاد الإمبراطور نفسه يقع فى قبضة العرب ، لولا أنه تنكر باستبدال زيه مع ملابس ابن أحد ضاربى الطبول على سفينته ، وهرب من المعركة على ظهر مركب آخر ، فرّ به إلى صقلية[٢] .

وبفرار الإمبراطور قضى العرب على تلك (الأرمادا) التى أعدها الروم ، وخرجوا ظافرين من معركة حامية الوطيس . وتعتبر تلك الوقعة البحرية

Kremer, op cit, 358. (١)

Bury, op cit, 290, 291 (٢)

التي عرفت بوقعة « ذات الصوارى » في المراجع العربيـــة بسبب كثرة صوارى السفن المشتركة في القتال ، من المعارك البحرية الحاسمة التي غيرت مجرى تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، إذ تقف وقعة ذات الصوارى على قدم المساواة مع معركة أكتيوم[1] (سنة ٣١ ق . م) في التاريخ القديم لهذا البحر ، ومعركة النيل (أو أبي قير سنة ١٧٩٨ م)[2] في العصر الحديث . فكما أن معركة أكتيوم جعلت من البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية حتى آلت سيادته إلى الروم ، وكما أن معركة النيل رسمت الخريطة السياسية التي نراها في عصرنا الحاضر للبحر الأبيض المتوسط ، فإن معركة ذات الصوارى قضت على اتصاف البحر الأبيض المتوسط بأنه « بحر الروم » وصار للأسطول العربي فيه الكلمة العليا .

وتجلت أولى النتائج الهامة التي ترتبت على انتصار الأسطول العربي في تلك الوقعة الفاصلة في تدعيم سيادة العرب على الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط . إذ أدرك الإمبراطور قنسطانز ومن جاء بعده من الأباطرة أن الأسطول العربي صار قوة عظيمة في البحر الأبيض المتوسط ،

(١) أكتيوم اسم قديم لاحدى الرؤوس الأرضية الممتدة من شمال اليونان في البحر الأبيض المتوسط . واشتهرت هذه البقعة لأنه دار بالقرب من مياهها معركة بحرية هامة سنة ٣١ ق . م بين أسطول البطالمة حكام مصر ، والقائد الروماني أوكتافيوس . وترجع أهمية هذه المعركة إلى أنها جلبت النصر للرومان ، وقضت على البطالمة الذين كانوا آخر قوة تنافس الرومان على سيادة البحر الأبيض المتوسط ، إذ تلا سقوط مصر في أيدى الرومان تحويل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة رومانية ، وبقاء سيادة الرومان وخلفائهم الروم أي البيزنطيين على هذا البحر حتى وقعة ذات الصوارى .

(٢) [illegible] النيل سنة ١٧٩٨ م عندما فاجأ نلسون أمير البحر البريطاني أسطول نابليون في مياه [illegible] وكان لهذه المعركة أثر كبير في مصائر الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط ، إذ أدت [illegible] البحرية بفشل حملة نابليون على مصر وفتحت باب النفوذ البريطاني في البحر الأبيض المتوسط .

وأن دولة الروم بذلك لن تستطيع إخراج العرب من الديار التي حلوا بها على شواطىء هذا البحر . فطلق أباطرة الروم فكرة استرداد البلاد التي كانت تابعة لهم من يد العرب ، وفضلوا الاعتراف بالأمر الواقع .

ويضيف إلى أهمية انتصار الأسطول العربي في وقعة « ذات الصوارى » أن العرب دخلوا بعد هذا الانتصار البحرى في دور من النزاع الداخلي بسبب مقتل عثمان ، وتطور هـــذا النزاع إلى نشوب حرب أهلية بين على ومعاوية ، وقف فيها نشاط الأسطول العربي . فكانت هذه الاضطرابات فرصة سانحة يستطيع الروم فيها إيقاع أشد الأضرار بالعرب لو أنهم لم يتخلوا تماما عن فكرة استعادة أملاكهم في الشام ومصر .

وبذلك يعتبر الأسطول العربي هو حجر الزاوية في صرح مجد أمة العرب على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، إذ أتاح للعرب فرصة الاستقرار في أهم بقعة شاهدت ميلاد وترعرع الحضارات القديمة ، وتمثل تلك الحضارات في هدوء وطمأنينة ، ثم أخرج العرب بعد ذلك حضارتهم الزاهرة التي تبوأت مكانتها في تاريخ البحر الأبيض المتوسط ، مسهمة بنصيب كبير في خدمة ميدان البحار وركوبها .

وكان الأسطول العربي هو صاحب الفضل في إعلاء كلمة أمة العرب الناشئة ونشر ثمار حضارتها في شتى أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، وكانت آية المجد العربي الذى حمله ذلك الأسطول في الحملات البحرية التي وجهها العرب على القسطنطينية نفسها ، عاصمة الروم ، ومنافسيهم على سيادة البحر الأبيض المتوسط .

الفصل الثالث

الأسطول العربى

فى حصـــار القسطنطينية

عهد التوسع البحرى

يعتبر اتجاه الأسطول العربى إلى مياه القسطنطينية ، واشتراكه مع القوات العربية زمن الأمويين فى حصار القسطنطينية ، بداية مرحلة جديدة تحمل طابع التوسع البحرى . ذلك أن أعمال الأسطول العربى السالفة من فتح قبرص ورودس أو وقعة ذات الصوارى تعتبر جزءاً من سياسة العرب الدفاعية وتأمين سلامه شواطئهم على البحر الأبيض المتوسط . غير أن وقعة ذات الصوارى جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن الموقف الجديد أصبح يحتم عليهم الفصل فى سيادة ذلك البحر ، وانتزاعه نهائياً من قبضة الروم .

وكان معاوية هو صاحب الفضل مرة أخرى فى دفع العرب نحو التوسع البحرى ، فكما جاهد فى سبيل بناء أسطول عربى فى البحر الأبيض المتوسط فإنه عمد إلى دفع العرب إلى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم نفسها . ولم يكن معاوية بالشخص الذى يرتجل أعماله ، وإنما يقدم على مشاريعه عن روية وتمحيص . فما كاد يستتب له الأمر بعد النزاع الداخلى الذى

نشب بينه وبين على بن أبى طالب ، وما كاد يصبح خليفة للدولة الأموية ، حتى أخذ يعد الأسطول العربى لمساعدة قواته البرية فى الاستيلاء على القسطنطينية .

وجاءت سياسة معاوية البحرية الجديدة عنواناً على فهمه التام لأوضاع البحر الأبيض المتوسط ، إذ أدرك بثاقب نظره أن القسطنطينية عصب جزر البحر الأبيض الشرقى ، تغذيها بالقوات والامدادات وتشجع أهاليها على شن الإغارات على سواحل العرب بالشام ومصر ، وقوى هذا الاتجاه عند معاوية حملاته المتكررة على جزيرة قبرص ، ودأب الروم على اتخاذ تلك الجزيرة شوكة تخز فى جنب البلاد العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

واستهل معاوية سياسته البحرية التوسعية بتقوية الثغور البحرية فى كل من الشام ومصر ، وشحنها بالجند المدربين على ركوب البحر . ثم بث النشاط فى دور الصناعة بكل من مصر والشام كذلك لإنتاج السفن الحربية وغيرها من المراكب الخاصة بنقل المؤن والعتاد . وفى نفس الوقت أعد معاوية قواته البرية التى خصصت للتعاون مع القوات البحرية العربية فى الهجوم على القسطنطينية .

وتعتبر حملات العرب على القسطنطينية حجر الزاوية فى بناء سياسة بحرية جديدة لم يعرفها التاريخ على نطاق واسع إلا فى الحرب العالمية الأخيرة ، وقوامها خلق تعاون قوى وتنسيق تام بين القوات البرية والبحرية فى الهجوم والغزو . ويرجع السبب فى اتخاذ العرب تلك السياسة الجديدة إلى إغارات سكان جبل اللكام (Amanus) القريبين من حدود آسيا الصغرى التابعة للروم على أراضى الشام .

وكانت طبيعة جبل اللكام تساعد سكانه — وهم الذين أطلق عليهم العرب اسم المردة[١] ، بسبب خروجهم دائماً على النظام وتمردهم — على تنفيذ خططهم العدوانية دون أن ينالهم ضرر أو أذى ، إذ أغاروا من موطنهم بجبل اللكام على سلسلة جبال لبنان ، وإفادة أنفسهم من موقعها الجغرافى وخلوها من المحارس . فجبال لبنان تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وتقسم إقليم الشام قسمين ، أحدهما يطل على البحر ويضم الأقاليم الساحلية ، والآخر الأقاليم الداخلية البرية . وكانت أقاليم الشام الداخلية تعتمد فى حياتها على المدن الساحلية ، وتتصل بها عبر ممرات هامة فى هذه السلسلة الجبلية ، ولذا هدف الروم باتخاذ المردة عضداً لهم ، ودفعهم إلى الإغارة على جبال لبنان سبيلا لشل التعاون بين أساطيل المسلمين فى القواعد البحرية وبين الجنود البرية فى الداخل .

وظهر تعاون المردة مع الروم فى تعطيل جهود المسلمين البحرية سنة ٤٧ هـ / ٦٦٦ م ، أى قبل عامين من قيام أول حملة عربية برية وبحرية ضد القسطنطينية ، إذ حين ترامت إلى سلطات الروم أنباء استعدادات معاوية للهجوم براً وبحراً على القسطنطينية ، اندفع المردة مع قوات من الروم عبر جبال لبنان لإحداث اضطراب فى صفوف الحملة المنتظرة ولكن المردة [illegible] إلى قواعدهم حين عبأ معاوية قواته للقضاء عليهم ، [illegible] إلى آسيا الصغرى[٢] .

وترتب على [illegible] تحول فى سياسة العرب البحرية ، إذ أدركوا ضرورة [illegible] التعاون بين قواتهم البرية والبحرية ، حتى يتجنبوا

(١) Hitti, History of Syria, 448.
(٢) Lammens, La Syrie, 91.

عنصر المفاجأة ، ولا سيما وأنهم على أهبة توسع بحرى عظيم . فوضع معاوية جماعة من خيرة جند العرب فى مراكز حربية على امتداد جبال لبنان استطاعت أن تحمى ظهر القوات البرية والبحرية فى نفس الوقت فى إقليم الشام[١] .

وفى سنة ٤٩ هـ / ٦٦٨م أرسل معاوية حملة استطلاعية برية وبحرية لدراسة الطرق المؤدية إلى القسطنطينية[٢] . وفى العام التالى أعد معاوية مدداً آخر لشد أزر القوات البرية والبحرية التى خرجت للهجوم على القسطنطينية فى العام السالف ، ووضع على رأسها ابنه وولى عهده يزيد . وبلغ من اهتمام معاوية بأمر هذه الحملة وإكسابها طابع الجهاد المقدس أن ضم إلى ابنه شخصية كبرى من أصحاب الرسول الكريم ، وممن لعبت دوراً رئيسياً فى مؤازرته ونصرة دعوته وهو أبو أيوب الأنصارى ، الذى استقبل الرسول فى بيته .

وعلى ضفاف البسفور نقلت السفن العربية تلك الأمداد التى حاصرت القسطنطينية . وقد أظهر الجند العرب فى ذلك الحصار تفانياً عظيماً ، جعل يزيد يلقب لشهامته باسم « فتى العرب » ، على حين توفى أبو أيوب الأنصارى وهو يحاصر القسطنطينية ، ودفن بالقرب من أسوارها[٣] . ثم رفع العرب الحصار سنة ٦٦٩م ، بعد أن تبين لهم أن خير سبيل للاستيلاء على القسطنطينية هو إعداد أسطول قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية .

(١) البلاذرى . فتوح البلدان ، ص ١٦٩ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٣٠
(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج٦ ، ص ١٣٠ ؛ Lammens, Mo'awia 1er, 443.

حرب السنوات السبع

٥٤ – ٦٠ هـ/ ٦٧٤ – ٦٨٠ م

تعتبر الحملة التى قادها يزيد بن معاوية ضد القسطنطينية حملة استطلاعية ، استهدفت معرفة موقع تلك العاصمة ، وأمثل الطرق للاستيلاء عليها . وكانت نتيجة تلك الدراسات التمهيدية هو أن الهجوم على القسطنطينية يتطلب إعداد أسطول عربى قوى ، يقف على قدم المساواة مع القوات البرية ، وضرورة وضع خطة تنسق التعاون بين كل من القوتين البرية والبحرية أثناء حصار تلك المدينة المنيعة .

واكتسبت القسطنطينية تلك المكانة الاستراتيجية بسبب إحاطة المياه بها تقريباً من ثلاث جهات . فقبل اتصال مياه البسفور ببحر مرمرة يمتد داخل الشاطىء الأوربى خليج عظيم طوله سبعة أميال فى انحناء أشبه بالمنجل أو القرن ، جعله يعرف فى التاريخ باسم « القرن الذهبى » . وبين القرن الذهبى وبحر مرمرة قامت رأس أرض تلالية ، على شكل مثلث متساوى الضلعين تقريباً ، رأسه تقابل الشاطىء الأسيوى . وعلى تلك البقعة الفريدة نشأت القسطنطينية التى صارت تنعم بميناء طبيعى فى القرن الذهبى ، يكفل لأساطيلها الحماية ، فضلا عن حصانة المدينة نفسها لأن المياه تحيط بها تقريباً من الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية(١) .

وبعد أن قام العرب بحملتهم الأولى الاستطلاعية ضد القسطنطينية ،

Rnuciman, Byzantine civilization, 12. (١)

وجه أباطرة الروم جهدهم لتأمين وتدعيم وسائل الدفاع عن تلك العاصمة . واستهدفت سياسة الروم إقامة حلقة محكمة من الأسوار والحصون تكفل للعاصمة مقاومة أى حصار يفرض عليها ، براً كان أم بحراً ، ولأطول مدة ممكنة . فشيد الأباطرة على جانب القسطنطينية البرى الممتد من البسفور إلى القرن الذهبى سوراً متيناً ، صار يكون قاعدة المثلث الذى تحتله المدينة . واشتمل ذلك السور على جدارين أحدهما ملتصق مباشرة بالمبانى ويكون خط الدفاع البرى الأول وتعلوه الأبراج والحراس ، والجدار الثانى الخارجى ، أكثر ارتفاعاً من الجدار الداخلى ، ويحيط به خندق عرضه ٦٦ قدماً لعرقلة زحف القوات المعادية على العاصمة(١) .

غير أن اهتمام الأباطرة الأعظم اتجه إلى شئون العاصمة البحرية ، إذ أقاموا جدراناً هائلة للدفاع عن القسطنطينية من ناحية البحر ، وغدت تلك الأسوار تحيط بجميع الجهات البحرية الثلاث للعاصمة ، وتعتمد فى منعتها وقوتها على القلاع والحصون ، أكثر من اعتمادها على سمك الجدار وضخامته . فكان على امتداد القرن الذهبى وبحر مرمرة أسوار بحرية تتصل بالسور الأرضى الذى يكون خط الدفاع البرى عن العاصمة .

ولم يقف اهتمام السلطات فى القسطنطينية عند الجانب الدفاعى الخاص باقامة الأسوار ، وإنما حصنوا أيضاً الموانى التى ترسو بها الأساطيل المدافعة عن العاصمة . فإلى جانب القرن الذهبى كان للقسطنطينية موانى أخرى صغيرة تطل على البسفور ، ولعبت تلك الموانى برغم صغرها دوراً هاماً فى تسهيل الملاحة فى مياه القسطنطينية ، إذ كانت السفن تجد فيها أماكن هادئة تأوى

Bury; History of the later Roman Empire (1931), 70,71 (١)

إليها عند اشتداد التيار المتدفق من البحر الأسود [illegible] والذى يزيد من حدته هبوب الرياح الشمالية [illegible] على هذا التيار والرياح معاً عرقلة السفن التى تبغ[illegible] القسطنطينية ودخول القرن الذهبى ، لتلقى [illegible]

وفى ذلك الوقت الذى جهدت [illegible] عاصمتها صمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد حملة ثانية تستهدف الاستيلاء على القسطنطينية قبل أن يتم الأباطرة وسائل الدفاع عنها . وكان للأسطول العربى المكانة الأولى فى تلك الحملة التى سارت طلائعها فى سنة ٥٣ هـ/٦٧٣م بقيادة عبد الرحمن بن خالد . وقد حل فصل الشتاء والأسطول فى طريقه إلى مياه القسطنطينية ، فألقت السفن مراسيها على شاطىء قيليقية حتى يتحسن الجو[٢] .

وبمطلع الربيع عززت قوات خالد البحرية بوصول أسطول عربى آخر ، ثم استأنفت القوات جميعها الزحف على القسطنطينية . وفى شهر أبريل اجتاز الأسطول العربى مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، واستولى على جزيرة قزيقوس (أرواد فى المراجع العربية) فى مياه القسطنطينية الإقليمية ، واتخذها قاعدة لإدارة حملاته ضد العاصمة[٣] .

وجرت أحداث الحصار العربى للقسطنطينية وفق خطة كان للأسطول فيها الدور الرئيسى . إذ نقلت السفن العربية الجند إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية الخارجية ، على حين يكمل الأسطول حلقه الحصار بأن تمتد

---

(١) Runciman, op cit, I2 ; Bury, op cit 7.8.

(٢) Bury, op.cit.II.310.

(٣) Brehier, Vie et Mort de Byzance, 63.

سقه بين رأس هبدومون (Hebdomon,) ، التى تبعد سبعة أميال عن أسوار القسطنطينية ، وبين رأس كيكلبيوس (Kyklobjos) الواقعة بالقرب من أحد أبواب العاصمة المعروف بباب الذهب .

واستمر الحصار البرى البحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر ، حيث تخللته المناوشات بين أساطيل العرب والروم وبين جند كل منهما كذلك. فكانت سفن الروم والعرب تتصادم من الصباح إلى المساء ، على حين تتراشق القوات البرية بالسهام والقذائف . وظلت المعارك بين الفريقين سجالا دون أن يستطيع أحدهما التغلب على الآخر[١] .

وفى شهر سبتمبر ، أى بحلول الشتاء ، رفع العرب الحصار عن القسطنطينية، بسبب رداءة الأحوال الجوية بالقرب من تلك المدينة. ولكن العرب أظهروا بفضل أسطولهم من الجد والمثابرة ما أثار قلق سكان عاصمة الروم . إذ فى شهر سبتمبر ، الذى رفع فيه العرب الحصار ، عادت سفن أسطولهم تحمل الجند إلى جزيرة أرواد ، والتى بها قاعدة الأسطول ، لتقضى بها فصل الشتاء ، وتنتظر تحسن الأحوال الجوية لإعادة الحصار على المدينة .

وبمطلع الربيع عادت سفن الأسطول العربى تحمل الجند إلى أسوار القسطنطينية على حين تابع الأسطول حصار المدينة بحراً، كما حدث فى العام السالف . وقد أنزل الأسطول العربى بالجند المدافعين عن القسطنطينية خسائر فادحة ، ولكن دون أن يتمكن من اقتحام الأسوار البحريه . وسرعان ما حل الشتاء مرة أخرى ، واضطر الأسطول إلى نقل الجند ثانية إلى جزيرة أرواد[٢] .

---

(١) Brehier, op. cit, 63; Bury op. cit, 310.

(٢) Brehier, op. cit, 63.

وقد تكررت تلك الخطة الحربية لحصار القسطنطينية بضع سنوات ، إذ يبدأ الأسطول العربى فيها نقل الجند إلى أسوار المدينة بمطلع الربيع ، ثم يكمل هو حلقة الحصار من البحر ، ثم يعود عند حلول الشتاء إلى جزيرة أرواد انتظاراً لمقدم الربيع التالى وهكذا . وأظهر أمراء البحار العرب فى أحداث هذا الحصار الكثير من ضروب البسالة والشجاعة . ذلك أن الروم قد عرفوا فى تلك الفترة النار البحرية لأول مرة ، وهى سلاح خطير أتعب الأسطول العربى ، لأن كرات النار التى قذفها الروم كانت تشتعل على الماء وعلى ظهور السفن على السواء ، دون أن يعرف العرب إذ ذاك وسيلة لإطفائها .

غير أن هذا السلاح الجديد لم يفت فى عضد أمراء البحار العرب ، وإنما جاءتهم الإمدادات البحرية تباعاً ، إذ وصل أسطول عربى آخر تحت قيادة سفيان بن عوف ، شد من أزر القوات العربية المحاصرة للقسطنطينية[1] ، على حين أسهمت السفن العربية فى مهاجمة أساطيل الروم وحملتها على الإنزواء فى موانى العاصمة ، برغم استخدام تلك الأساطيل للنار البحرية .

وبعد سبع سنين من تلك الحروب المضنية أحس معاوية بن أبى سفيان بدنو أجله ، وأنه لابد من سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية حتى لا تتعرض تلك الحملة إلى الأخطار إذا ما حلت به الوفاة وهى ما زالت مشتبكة مع العدو . ومن ثم دخل معاوية فى مفاوضات مع الروم لسحب أسطوله وقواته . وكانت دولة الروم تتلهف على إنهاء ذلك الحصار القاسى ، وأرسلت إلى دمشق رجلا يدعى يوحنا ، وهو من أشهر رجالها الدبلوماسيين وأكثرهم ذكاء وفطنة .

(1) Bury, op.cit, II, 311; Gibbon, The Roman Empire II, 701.

وقد [illegible] جلسات كثيرة [illegible] خبرة أبناء البيت الأموى ، وأبدى فيها من الإجلال للخلافة الأموية ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه [illegible] مفاوضات [illegible] صلح بين دولته والخلافة الأموية [illegible] الأولى [illegible](1) [illegible] عادت الأساطيل العربية والقوات العربية من حصارها للقسطنطينية [illegible] بالشام ، بعد أن أثبت العرب للروم أن [illegible] على قبضة البحرية العربية الناشئة وضرباتها الشديدة .

وتعتبر تلك الحملة البحرية على القسطنطينية عنواناً على قوة جلد العرب وقدرتهم على اكتساب الخبرات فى الميدان البحرى فى سرعة فائقة . إذ عرف أمراء البحار طبيعة المنطقة التى تشغلها عاصمة الروم ، وقوة أسوارها وأنواع استحكاماتها ، وذلك على أسس من الدراسة والتمحيص ، دون أن يعتمدوا على الارتجال . ويدل على ذلك اختيار جزيرة أرواد القريبة من القسطنطينية لتكون مركزاً لحركات الأسطول العربى فى الصيف والشتاء فى مياه تلك العاصمة . وكذلك دلت أحداث الحصار البحرى على أن العوامل الطبيعية وحدها من تدفق التيارات المائية هى التى عرقلت استيلاء الأسطول العربى على القسطنطينية .

(1) Bury, op. cit, 312.

الحصار الثالث للقسطنطينية

كان معاوية بعيد النظر حين عجل بسحب الأسطول العربى بعد أن حاصر القسطنطينية حصاراً شديداً مدة سبع سنوات كاملة . إذ ما كادت سفن الأسطول تلقى مرساها فى قواعد الشام سنة ٦٨٠ م حتى توفى معاوية فى نفس العام . تاركا ابنه يزيد الذى تولى منصب الخلافة وسط معارضة شديدة من بعض كبار رجالات العرب ، وعلى رأسهم الحسين بن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن الزبير .

وقد ترتب على تلك المعارضة الشديدة حدوث انقسام فى الدولة الإسلامية ، وقيام حروب أهلية مريرة صرفت جهد البيت الأموى عن متابعة النشاط البحرى . وفضلا عن ذلك فإن مشاكل البيت الأموى لم تنتهى بقضاء الخليفة يزيد بن معاوية على ثورة الحسين بن على بن أبى طالب . إذ حدث انشقاق فى البيت الأموى نفسه عقب وفاة يزيد وتخلى ابنه معاوية الثانى عن الخلافة . ذلك أن نفراً من بنى أمية تطلع إلى انتزاع الخلافة لنفسه ، وانتهى النزاع سنة ٦٤هـ / ٦٨٥ م حين تولى مروان بن الحكم الخلافة ، مسجلا بذلك انتقال زمام الدولة الإسلامية من البيت السفيانى إلى البيت المروانى .

ولم يترتب على [illegible] الانتقال [illegible] فى البيت الأموى تغيير فى سياسة [illegible] البحرية تجاه البحر الأبيض المتوسط . إذ تابع أفراد البيت المروانى سياسة الفرع السفيانى فى الاهتمام بالأسطول العربى وتدعيم قواعده فى البحر الأبيض المتوسط . وقامت [illegible] هذا النشاط المروانى هو

نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان فى إقصاء المردة — الذين دأب الروم على استغلالهم فى شل التعاون بين القوات البرية العربية والأسطول العربى — عن أماكنهم نهائياً بجبل اللكام .

ويرجع نجاح الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دهائه ، وقصر نظر معاصره امبراطور الروم ، وهو جستنيان الثانى ، إذ دخل عبد الملك مع هذا الامبراطور فى مفاوضات تستهدف نقل المردة من جبل اللكام إلى داخل أراضى الروم مقابل دفع ١٠٠٠ دينار سنوياً . ولم يجد عبد الملك أية غضاضة فى دفع هذا المبلغ مقابل إبعاد أكبر خطر تهدد قواعد الأسطول العربى بالشام . ونجحت تلك المفاوضات ، حيث نقل جستنيان الثانى ١٢٠٠٠ من المردة إلى رومانيا ، على حين ذهب بعضهم إلى تراقيا ، وتبعثرت البقية الباقية منهم داخل آسيا الصغرى[١] .

وبذلك كسب عبد الملك جولة هامة فى تدعيم الأسطول العربى ، فى فترة كان مشغولا فيها بثورة عبد الله بن الزبير ، الذى حمل لواء المعارضة للبيت الأموى بعد مقتل الحسين بن على بن أبى طالب . وقد أحس المعاصرون من الروم خطورة عمل جستنيان الثانى ، وفداحة الخطأ الذى تردى فيه حين أجاب الخليفة عبد الملك إلى طلبه ، إذ قال أولئك المعاصرون أن نقل المردة حطم الستار الحديدى[٢] الذى وقف فى وجه طلائع الأسطول العربى وقواته فى هجومها على بلاد الروم .

وعندما توفى الخليفة عبد الملك سنة ٧٠٥ م ، ترك لابنه الوليد دولة

---

(1) Bury, op. cit. II, 321.

(2) Ibid, 321.

ثابتة الأركان ، ولا سيما بعد أن نجح فى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير . وكان الوليد خير خلف لأبيه . إذ تابع سياسة تقوية الأسطول العربى ، وخلق تعاون قوى بينه وبين القوات البرية . واتخذ الوليد من بلاد الروم فى آسيا الصغرى ميداناً تتدرب فيه القوات البحرية العربية والبرية على التعاون فى الهجوم على معاقل الروم ، تمهيداً للزحف على القسطنطينية .

وأسهم الأسطول العربى فى تلك التدريبات مساهمة فعالة . اتسمت بالمغامرة كذلك . وفى إحدى حملات الأسطول العربى سنة ٩٠ هـ/٧٠٩ م وقع أمير البحر العربى خالد بن كيسان أسيراً فى أيدى أسطول الروم . غير أن امبراطور الروم آثر مهادنة العرب ، وأعاد خالد بن كيسان للخليفة الوليد ، برهاناً على تطلعه إلى الوئام والسلام(١) .

ولكن الخليفة الوليد لم يغض النظر عن عاصمة الروم ، وأدرك ضرورة الزحف على تلك العاصمة ليحرم أسطول أعدائه من أهم قاعدة له فى البحر الأبيض المتوسط . ولذا أخذ الوليد يعد حملة بحرية وبرية قوية ، نصب عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفى سنة ٧١٤ م ترامت إلى سلطات الروم أنباء الاستعدادات البحرية العربية . فأوفد الأمبراطور أنسطاسى سفارة إلى دمشق تفاوض الأمويين فى عقد هدنة ، وتتأكد فى نفس الوقت من مدى استعداد الأسطول العربى . وكان رئيس تلك السفارة رجلا حصيفاً يدعى دانيال ، حاكم مدينة سينوب ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد دولة الروم على صدق تقاريره(٢) .

ولما وصلت سفارة الروم إلى دمشق شاهدت ضخامة الاستعداد البحرى

(١) الطبرى نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٦٨ .

(٢) Bury, op. cit, 371.

والبرى ، وعادت تحمل تلك الأنباء إلى العاصمة ورجالها فى القسطنطينية ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع ، ولا سيما الاهتمام بالناحية البحرية . واتجهت خطة الروم البحرية إلى خلق قاعدة لأسطولهم ، تكون مهمتها عرقلة زحف الأسطول العربى على القسطنطينية وإنشاء قاعدة أخرى قوية فى العاصمة نفسها لمقاومة حصار الأسطول العربى إذا ما استطاع الوصول إلى مياه القسطنطينية .

وتجلت سياسة الروم الجديدة حين جعلت من شواطىء آسيا الصغرى والجزر القريبة منها إقليما بحريا [illegible] فى قواعده سفن حربية على أهبة الاستعداد للقتال . وفى نفس الوقت أقام الروم فى جهات بحر مرمرة المواجهة للقسطنطينية فرقاً بحرية تساعد اسطول العاصمة على الدفاع . وقد نال أمير البحر على أسطول القسطنطينية سلطات واسعة ، تخول له حق تنظيم وسائل التعاون بين أسطول شواطىء آسيا الصغرى وأسطول ساحل بحر مرمرة(١) .

وفى نفس الوقت أعادت سلطات الروم تجديد أسوار القسطنطينية ، ولا سيما الجهات المطلة منها على المياه ، حيث كان التداعى قد دب فيها . ثم وضعت على تلك الأسوار كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع . واستعد سكان القسطنطينية لحصار قد يطول إلى ثلاث سنوات ووضعوا فى خزائن منازلهم كميات كبيرة من الغلال(٢) .

ورأى امبراطور الروم المبادرة بعرقلة استعداد العرب البحرى ،

(١) Runciman, op. cit, 150; Byzantium, 304.

(٢) Bury, op. cit, 371.

ولا سيما أن وفاة الوليد وتولى أخيه سليمان الخلافة لم يترتب عليه فتور فى تلك الاستعدادات[1] . إذ عمد الخليفة سليمان بدوره إلى خلق تعاون وثيق بين الأساطيل العربية فى مصر والشام والاستعانة كذلك بالأسطول العربى الفتى فى شمال أفريقيا التى ضمت إذ ذاك للدولة الإسلامية . فأبحر أسطول من مصر إلى شواطىء الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان لتصنع منها سفن حربية جديدة فى دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الأسطول العربى المتجه لحصار القسطنطينية .

وعند ما علم امبراطور الروم بأنباء استعداد الأسطول العربى عمد إلى مهاجمة الأسطول المصرى ، وتخريب الأخشاب التى يحملها قبل وصولها إلى دور الصناعة فى مصر . وعهد الامبراطور إلى فرق الحرس الامبراطورى ، وهى أشد فرق الجيش تماماً وتدريباً على فنون القتال البحرى بتنفيذ تلك المهمة . ولكن باءت مجهودات الامبراطور أنسطاسى بالفشل لعصيان الفرق الامبراطورية لأوامره وكراهيتها له . إذ شقت عصا الطاعة حين وصل الأســـطول الذى يقلها إلى رودس ، وقتلت القائد الذى عينه الامبراطور لإدارة عمليات الهجوم[2] .

ورأى الخليفة سليمان حين وصلته أنباء ذلك العصيان أن الوقت قد حان لضرب القسطنطينية مرة أخرى[3] . وفى سنة ٩٨ هـ / ٧١٧ م تحركت الجيوش الإسلامية والأسطول العربى من الشام تحت إمرة أخيه مسلمة

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

(٢) Bury, op. cit, 372.

(٣) اتخذ الخليفة مقر قيادته فى دابق بشمال الشام ، «وأعطى الله عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية» . أنظر الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١١٨ .

الذى سبق أن عينه الوليد قائداً عاماً . وكانت خطة مسلمة أن تسبق القوات البرية الأسطول العربى فى الزحف عبر آسيا الصغرى . وتمهد لخلع الامبراطور ، ثم تنتظر الأسطول على الشاطىء الآسيوى عند البسفور .

وسارت الجيوش العربية عبر آسيا الصغرى ، واتفق مسلمة بن عبد الملك مع أحد قادة الروم الحانقين على الامبراطور ، ويدعى ليو الإيسورى ، على الذهاب إلى القسطنطينية ، وإحداث فتنة بها ، مقابل تعهد مسلمة له بتنصيبه امبراطوراً جديداً على دولة الروم . غير أن ليو حنث بتعهده ، إذ ما كاد يدخل القسطنطينية ، حتى استغل أنباء الحملة الإسلامية الزاحفة على العاصمة ، واستمال الناس بها إليه ، ثم عزل الامبراطور أنسطاسى وتولى العرش ، معلناً قدرته على صد الهجوم المنتظر ، بسبب وقوفه على خطط العرب[1] .

وبعد خمسة شهور من تولى ليو العرش وصلت قوات مسلمة البالغ عددها ٨٠,٠٠٠ جندى إلى أسوار القسطنطينية . وبعد ستة عشر يوماً من وصول مسلمة إلى أسوار عاصمة الروم أى فى أول سبتمبر سنة ٧١٧ م دخل مياه البسفور أول أسطول عربى كبير مكون من ١٨٠٠ سفينة حربية ، عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة . وأخذ مسلمة ينظم التعاون بين قواته البرية والأسطول العربى لإتمام حلقة الحصار حول القسطنطينية . فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية ، على حين عمد سليمان ، أمير البحر العربى ، إلى سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الأمداد والمؤن ، ثم فرض حصار على الأسوار البحرية كذلك .

---

(١) Bury, op. cit. 483.

وأخذ الأسطول [illegible] الجنوبى لقطع الاتصال بين القسطنطينية [illegible] مصدر تموين للعاصمة من الجنوب [illegible] جنوبية طيبة وبعث شطراً من أسطول [illegible] أى مدد يأتى للمدينة من البحر [illegible] هذا البحر الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى [illegible] القسطنطينية بالغلال(١)

وسارت السفن العربية [illegible] لتحقيق الخطة الخاصة باحتلال المدخل الشمالى للبسفور بسبب [illegible] المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود إلى بحر مرمرة . ثم حدث حادث قلب خطط الأسطول العربى رأساً على عقب ، إذ غيرت الرياح الجنوبية ، التى اعتمد عليها أمير البحر العربى فى إكمال حلقة الحصار البحرى على القسطنطينية ، اتجاهها فجأة ، شأن الأحوال الجوية فى تلك المنطقة . فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ، التى زادتها قسوة رداءة الملاحة فى تلك المياه الإقليمية للقسطنطينية .

وقد انتهز الروم تلك الفرصة التى نشرت الفوضى فى صفوف الأسطول العربى ، وبعثوا سفنهم المحملة بالنار البحرية ليزيدوا فى متاعب السفن العربية وبحارتها(٢) . ولذا تعتبر طبيعة الملاحة حول القسطنطينية ، وكذلك الأحوال الجوية حولها هى العامل الأول والرئيسى فى الحيلولة بين الأسطول العربى وبين تنفيذ خطته الخاصة بغلق مدخل البسفور الشمالى . أما النار البحرية التى علقت عليها المراجع الأوربية أهمية كبرى فى إنقاذ القسطنطينية ،

(١) Bury, op. cit, 401, 402.

(٢) Bury, op. cit, 402.

فليست [illegible] وإنما ليست العامل الأول [illegible] ويلاحظ أن الامبراطور [illegible] بعد أن لعبت الطبيعة [illegible]

[illegible] محاصرة القسطنطينية [illegible] مفتوحة . وظل الحصار [illegible] قسوة الطبيعة فى تلك الفترة من السنة .

وفى [illegible] ربيع [illegible] وصلت [illegible] للقائد مسلمة بن عبد الملك . فجاء أسطول من مصر بقيادة أمير [illegible] يدعى سفيان ، وآخر من شمال أفريقيا تحت إمرة شخص يدعى [illegible] وهناك تعاون هذان القائدان البحريان مع مسلمة . لأن أمير البحر السابق سليمان توفى من قبل أثناء الشتاء . وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مرداس ، اضطلعت بمهاجمة شواطىء البسفور [illegible] بين السفن التابعة للروم وبين الخروج طلباً للحصول على صيد بحرى يغذى سكان العاصمة ، أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه(٢) .

واستخدمت القوات العربية لأول مرة النفط ، كما استعانوا بنوع من المجانيق أشبه بالمدفعية فى هذا الحصار . وكذلك أبدى الجند من ضروب

(١) كان القائد مسلمة قد احتاط للعوامل الجوية فى تلك المنطقة ، فعمل « بيوتا من خشب شتا فيها وزرع الناس .... وأقام بالقسطنطينية قاهراً ، ومعه وجوه أهل الشام » . انظر : الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٨ ص ١١٧ .

(٢) Fury, op. cit, 403

الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية . وظهر من الجند العرب عبد الله البطال ، كبير حراس مسلمة بن عبد الملك ، الذى أبلى فى هذا الحصار بلاءاً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال ، وغدا اسمه موضوعاً لعدد من القصص تناولت شجاعته باسم « السيد غازى[١] » .

غير أن حصار القسطنطينية ظل ناقصاً برغم أعمال البطولة التى أبداها الجند العرب . ذلك أن العوامل الطبيعية بالقرب من القسطنطينية لعبت دورها مرة أخرى فى عرقلة نشاط الأسطول العربى ومنعه من مساعدة القوات البرية فى حصارها لعاصمة الروم . إذ بينما وقفت الجيوش العربية أمام أسوار القسطنطينية وفرضت عليها حصارا شديدا ، لم يستطع الأسطول السير شمالا للسيطرة على مضيق البسفور . وكان السبب فى ذلك هو اشتداد تدفق التيار المائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، بسبب تغيير الرياح لاتجاهها فى تلك المنطقة من جنوبية إلى شمالية .

وقد ترتب على تلك العوامل الطبيعية عجز السفن الحربية عن عبور البسفور ، وبالتالى عدم تحقيق الخطة الخاصة بإحكام حلقة الحصار حول القسطنطينية . فبينما نجحت بعض وحدات الأسطول العربى فى حرمان عاصمة الروم من الاتصال بمصادر تموينها فى الجنوب ، فى حوزة بحر مرمرة وبحر إيجه كذلك ، ظلت الجبهة الشمالية للعاصمة على اتصال بسواحل البحر الأسود ، التى أمدتها بما احتاجت إليه من الغلال وغير ذلك من المواد الغذائية . وكانت القسطنطينية ترى فى جبهتها الشمالية مصدر الحياة الحقيقى ، برغم أن الجهات الجنوبية القريبة منها أمدتها بالرجال والقوى المحاربة . فكان سكان عاصمة الروم يرتبون خططهم الدفاعية على أساس الاستقلال عن المساعدات

---

(١) العيون والحدائق ، ج ٣ ، ص ٢٤ ؛ Hitti, op. cit, 449.

الحربية ، وبذل قصارى جهدهم فى الاحتفاظ بمصادر غذائهم من ناحية الشمال .

وفى تلك الفترة التى اشتد فيها الحصار العربى للقسطنطينية توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز . وتردد صدى هذا التغيير فى سير الحملة المحاصرة للقسطنطينية ، إذ رأى الخليفة الجديد أن الأوضاع الخاصة بالدولة الإسلامية تتطلب تنظيما وتدعيما بعد أن صارت رقعتها شاسعة ، وأن إيقاف العمليات الحربية الكبرى شرط أساسى للحصول على الاستقرار المنشود لتلك الدولة الشاسعة .

ولذا اتجهت أنظار الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى سحب الأسطول العربى والقوات البرية المحاصرة للقسطنطينية . فأرسل فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ، أى بعد حصار دام اثنى عشر شهراً كاملا ، يطلب من مسلمة العودة بأساطيله وجيوشه إلى الشام . وبذلك عادت تلك الحملة العربية التى تعد من أضخم الأعمال البحرية التى شاهدها البحر الأبيض المتوسط طوال تاريخه الحافل بالنشاط الحربى .

وإذا كانت طبيعة الملاحة بالقرب من القسطنطينية قد حالت بين الأسطول العربى وبين الاستيلاء على تلك العاصمة ، فإن نتائج النشاط البحرى العربى فى مياه القسطنطينية قد تردد صداه فى الشطر الغربى من البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن تكريس الروم لجهودهم وأساطيلهم من أجل الدفاع عن عاصمتهم ضد النشاط البحرى العربى قد هيأ للأسطول العربى خلق قاعدة جديدة له فى شمال أفريقيا ، صارت فيما بعد دعامة السيادة العربية فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

الفصل الرابع

الأساطيل العربية

فى غرب البحر الأبيض المتوسط

طلائع البحرية المغربية

سارت خطوات البحرية العربية فى غرب البحر الأبيض المتوسط فى طريق عائل لنشأة النشاط البحرى العربى فى الشطر الشرقى من هذا البحر . ذلك أن أحداث الفتح العربى لشمال أفريقيا ، الذى بدأ بعد الاستيلاء على مصر ، حمل العرب على بناء أسطول لهم فى مياه المغرب يساعدهم على إتمام مشاريعهم وتأمين فتوحاتهم .

وكانت بلاد شمال أفريقيا تابعة للروم ، الذين عمدوا إلى التشبث بالدفاع عن هذا الجزء من ممتلكاتهم ليكون عوضا لهم عما فقدوه من ولايات فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان الامبراطور قنسطانز الثانى هو صاحب تلك السياسة الجديدة بعد هروبه من وقعة ذات الصوارى البحرية (٣٤ هـ/٦٥٥ م) . فبينما شغلت الدولة الإسلامية بفتنة مقتل عثمان بن عفان وما تلاها من صراع بين على ومعاوية ، تحول ذلك الامبراطور إلى العناية بشمال أفريقيا .

ودفع الامبراطور قنسطانز إلى الاهتمام بأحوال شمال أفريقيا عجزه عن

هزيمة الأسطول العربى الذى ظهر بأسه فى وقعة ذات الصوارى . ومن ثم أخذ يعمل على تنظيم شئون دولته البحرية بما يجعلها تواجه الأمر الواقع ، وهو أن العرب صاروا قوة كبرى فى البحر الأبيض المتوسط ، وأن الحكمة تقضى خلق قاعدة بحرية للروم بعيدة عن عش الأسطول العربى الفتى ، وتكون وسيلة فى المستقبل لكسر شوكته .

وبدأ قنسطانز ينفذ سياسته البحرية الجديدة حين اختار صقلية لتكون مركزا للمقاومة ضد النشاط البحرى العربى المتزايد . فنقل عاصمته إلى تلك الجزيرة بعد وقعة ذات الصوارى ، ثم عهد إلى تدعيم أساطيله هناك بربط ماتبق لدولته من أملاك فى إيطاليا مع ممتلكاته فى شمال أفريقيا لتصير قوة لها بأسها . واستهل قنسطانز نشاطه البحرى الجديد من عاصمته سرقوسة (سيراكوز) بصقلية ، حيث بعث أساطيله منها لتغير على القوات العربية التى وصلت طلائعها إلى تونس[1] .

ونجح قنسطانز بفضل قوته البحرية فى استرداد الأقاليم التى فتحها العرب فى برقة وتونس ، كما حصن مدن شمال افريقيا الهامه مثل قرطاجنة ، وزاد عدد السفن الحربية فيها . غير أن أعمال قنسطانز اتسمت بالقسوة ، ونجم عنها مؤامرة انتهت بالتخلص منه ، وقتله غيلة فى عاصمته الجديدة ، وذلك فى ١٢ يوليو سنة ٦٦٨ م .

غير أن مقتل قنسطانز لم يؤثر فى سياسة الروم البحرية فى غربى البحر الأبيض المتوسط ، إذ صارت أساطيل الروم تقف بالمرصاد للفتوحات العربية التى اتجهت فى نشاط إلى شمال أفريقيا بعد تولى معاوية بن أبى سفيان

---

(1) Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin I, 282 ; Bury, op. cit, 302, 303

عرش الخلافة . فعندما خرج عقبة بن نافع لغزو شمال أفريقيا سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م اتبع الطريق الداخلي ليكون بمأمن من إغارات سفن الروم . ثم أنه أسس أول قاعدة عربية حربية في شمال أفريقيا ، وهي القيروان[1] بعيدا عن الساحل ، حتى تكون عسيرة المنال على الأساطيل المعادية[2].

ولكن سياسة عقبة لم يكتب لها النجاح بسبب وجود أساطيل الروم ، وقدرتها على الاتصال بالبربر سكان شمال أفريقيا . إذ أعد الروم بالاتفاق مع البربر كمينا عند بلدة تهودة ، قضى على عقبة أثناء عودته من إحدى الإغارات بشمال أفريقيا[3] . وقد عجز زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة والذي سار سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م إلى شمال أفريقيا عن تدعيم الفتوحات العربية هناك بسبب سياسة الروم البحرية كذلك .

وكانت خطة الروم تجري على أساس استغلال افتقار العرب إلى أسطول يساند قواتهم وزحفهم على شمال أفريقيا . فلم يتعرض أسطول الروم لقوات زهير أثناء توغلها في بلاد المغرب . حتى صارت خطوط التموين العربية طويلة ومن السهل مهاجمتها من البحر . ولم يتنبه زهير لهذا الخطر الكامن له من ناحية البحر ، وتابع فتوحاته . وعندما فرغ زهير من حملته قفل عائدا إلى [illegible] حيث جرت العادة على عودة القوات العربية إلى مصر بعد إنهاء نشاطها في شمال أفريقيا .

وفي تلك الأثناء [illegible] سفن الروم [illegible] من ساحل برقة لمهاجمة

(١) القيروان : لفظ فارسي معرب ، معناه : [illegible] أو مرجع القوافل .
(٢) المالكي : رياض النفوس ، ص [illegible]
(٣) السلاوي : الاستقصا ، ص [illegible] ؛ ابن عبد الحكم : نفس المرجع ، ص ١٩٨ .

قوات زهير وهي منهوكة القوى ، بالانقضاض عليها فجأة . وقد علم زهير عند ما اقترب من برقة بنزول جند من الروم على ساحلها ، دون أن يتوقع قوة استعداد الروم البحري . إذ اعتقد زهير أن سفنا ضئيلة للروم قد رست بشواطيء برقة ، ولا ضير من مهاجمتها .

وذهب زهير إلى الساحل على رأس نفر يسير من قواته ليستطلع الأخبار ، فوجد الروم في سفن كثيرة العدد ، ومعهم عدد من أسرى المسلمين . ولم يكد هؤلاء الأسرى يرون زهير حتى استغاثوا به مستنجدين . فأخذت الحمية زهيرا ومن معه ، وأسرعوا بمهاجمة سفن الروم لتخليص الأسرى . غير أن الروم كانوا قد أعدوا معسكرا على الشاطيء بعيدا عن أعين العرب . ولذا ما كادت أقدام زهير ومن معه تطأ أرض الساحل حتى فاجأه جند الروم المختفي في المعسكر ، ودارت رحى معركة قاسية ، استشهد فيها زهير ، كما استشهد عقبة من قبل عند تهودة[1] .

وكان لاستشهاد زهير بأرض برقة نتائج بعيدة المدى في سياسة العرب البحرية في غرب البحر الأبيض المتوسط ، إذ أدركت السلطات الأموية في دمشق أن الموقف يتطلب انتزاع قواعد الروم البحريه بشمال أفريقيا ، ثم انشاء أسطول عربي آخر في مياه تلك الجبهة الجديدة ، تكون مهمته القضاء على سيادة الروم البحرية في غرب البحر الأبيض المتوسط .

واضطلع بتنفيذ تلك السياسة العربية البحرية الجديدة حسان بن النعمان ، الذي اتجه إلى شمال أفريقيا سنة ٧٦ هـ / ٦٩٥ م . وبادر حسان بمهاجمة قرطاجنة ، أقوى قاعدة لأسطول الروم في مياه المغرب ، وكان يدرك أن

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١٧٨ ؛
Fournel, La conquete de l'Afrique, 28.

نجاحه يتوقف على سرعة العمل والتنفيذ ، ومن ثم فاجأ المدينة بقواته الهائلة ، وأنزل بالروم هزيمة فادحة ، انسحبت على أثرها سفنهم بالميناء والتجأت إلى صقلية[١].

غير أن الروم انتهزوا ابتعاد حسان فى فتوحاته عن قرطاجنة وعادت أساطيلهم مرة ثانية إليها ، واستولت على هذا الميناء الهام بعد قتل الحامية العربية . ولكن حسان عاد سريعاً ، وأفسد خطة الروم باسترداده لقرطاجنة [٢] . وقد جذبت تلك الإغارة أنظار حسان إلى الخطة البحرية التى يجب أن يسير عليها إزاء الروم ، إذ عرف أن للروم على الساحل معاقل أخرى يتخذونها وسيلة لاسترداد قواعدهم البحرية الكبرى

ومن ذلك أن الروم حاولوا بعد خروجهم من قرطاجنة للمرة الثانية اتخاذ شبه الجزيرة الواقع شمال تونس ، والذى تقع فيه بنزرت مقراً لأعمالهم الحربية ضد العرب . وتعرف هذه المنطقة بإقليم سطفورة ، وتضم عدداً كبيراً من المدن التى تعتمد على البحر فى الدفاع عن نفسها والحصول على الأمداد . ولذا بادر حسان بطرد الروم من تلك الجهات الساحلية ، ودعم أقدام العرب فيها[٣] .

ولكن حساناً أحس أن الروم لن يكفوا عن إغارتهم طالما يفتقر العرب إلى أسطول يحمى شواطىء شمال أفريقيا . وكان حسان صادق الظن ، إذ انتهز أمبراطور الروم انشغال حسان بفتن داخلية فى شمال أفريقيا ، وبعث سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م أسطولا عظيما ، على رأسه أشهر قادته وهو

(١) البكرى ، وصف أفريقيا ، ص٣٧ ؛ ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٤ ، ص١٩٣ -
(٢) ابن عذارى ، المغرب ج ١ ، ص ٢٠ .
(٣) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ص ٢٠ .

البطريق يوحنا ، واستولى على قرطاجنة مرة أخرى . ومن ثم بعث حسان فى طلب أسطول عربى يشد من أزره فى استرداد قرطاجنة ، وجاءته عدة سفن حربية كانت أول قوة بحرية عربية ظهرت فى مياه شمال أفريقيا .

واستطاع حسان بفضل المعونة البحرية أن ينال نصراً باهراً على الروم ، إذ دارت رحى معركة بحرية بين أسطول العرب وأسطول الروم ، انتهت بانتصار العرب[١] ، الذين أثبتوا للروم مرة أخرى أن أسطول العرب الفتى قد صار قوة شديدة البطش ، وآثر أمير البحر على أسطول الروم الفرار عائداً إلى بلاده . ثم أن حساناً رأى أن يتخذ هذا الأسطول العربى الذى جاء لنجدته نواة لخلق قوة بحرية فى أرض المغرب ، تعمل على شد أزر العرب فى فتوحاتهم وأعمالهم . فأنشأ قاعدة تونس[٢] التى حلت محل قرطاجنة ، وصارت مركز البحرية العربية ونشاطها المبكر فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وخطا الأسطول العربى الفتى فى غرب البحر الأبيض المتوسط خطوات سريعة فى سبيل المجد والقوة ، على نحو ما قام به قرينه فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وتجلت مظاهر نشاط الأسطول المغربى فى عهد ولاية موسى بن نصير ، الذى خلف حسان بن النعمان على شمال أفريقيا سنة ٨٩ هـ/٧٠٧ م. إذ استهل هذا الوالى الجديد حكمه بإرسال أسطوله لمطاردة الروم من قواعدهم فى الجزر القريبة من الممتلكات العربية فى شمال أفريقيا . فهاجمت السفن المغربية جزر منورقه وميورقه بالقرب من سواحل أسبانيا ، وضمتها إلى التبعية للعرب بشمال أفريقيا[٣] .

(١) Diehl, L'Afrique, 583 — 584
(٢) أنظر الفصل السادس من هذا الكتاب .
(٣) أبو المحاسن ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ؛ Mercier, L'Afrique I, 217.

وفى عهد موسى بن نصير قام العرب كذلك باستخدام أسطولهم لفتح شبه جزيرة أيبيريا ، والانتقال إلى مرحلة جديدة من التوسع وإتمام سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط . وفى سنة ٧١٠ م خرج أحد قادة موسى بن نصير، وهو طريف، على رأس حملة بحرية قوامها أربعمائة راجل ومائة فارس استولت على شبه الجزيرة الصغيرة التى تعتبر أقصى جزء فى الجنوب من القارة الأوربية .

ولقد ظلت شبه الجزيرة تحمل اسم طريف إلى الآن حيث تدعى «تاريفا» أى جزيرة طريف ، وتمثل النتائج الأولى لنشاط العرب البحرى فى الميدان الغربى للبحر الأبيض المتوسط . ثم لم تلبث جهود العرب البحرية أن اتسعت فى العام التالى لغزوة طريف ، حيث قام طارق بن زياد على رأس حملة كبيرة أقلتها سفن عديدة إلى الصخرة العظيمة ، التى ما زالت منذ ذلك اليوم تخلد هذا العبور البحرى العظيم وهى جبل طارق ، وتابع موسى بن نصير الاهتمام بالأسطول العربى فى المغرب لنقل الإمدادات الحربية وغيرها إلى المقاتلين فى أسبانيا ، حتى انتهى الأمر باستيلاء العرب على هذا الركن الهام من جنوب أوربا .

ثم أن الأسطول العربى استطاع على عهد موسى بن نصير أن يسجل نصراً بحرياً آخر ، ساعد على تقدم العرب البحرى فيما بعد نحو الاستيلاء على الجزر الكبرى فى البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن موسى بن نصير وجه نظره إلى السيطرة على جزيرة قوصرة[1] ، وهى المشهورة اليوم باسم

---

(١) قوصرة (Cossyra) اسم يونانى ، ومعناه السلة أو السفط أو الزنبيل ، ويبدو أن هذا الاسم أطلق عليها للمشابهة الموجودة بين صورة الجزيرة والسلة ، وتحمل كلمة قوصرة فى اللغة العربية نفس المعنى وهو وعاء التمر أو القفة والزنبيل . (أنظر حسن حسنى عبد الوهاب ، قصة جزيرة قوصرة العربية ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر سنة ١٩٥٩) .

بنطلارية، بسبب قربها من البلاد التونسية ، وتسامتها من الشمال الشرقى . وقد تمتعت تلك الجزيرة بموقع ممتاز يساعد على الدفاع عن شمال أفريقيا ، ويمكن اتخاذها فى نفس الوقت قاعدة للتوسع البحرى كذلك ، إذ تقترب جزيرة قوصرة من صقلية ، التى كانت القاعدة الكبرى لأسطول الروم فى غرب البحر الأبيض المتوسط ، ومركز المقاومة لنشاط العرب البحرى .

وقد أشاد الجغرافيون والرحالة العرب بهذا الموقع الممتاز لتلك الجزيرة لأنها : « قبالة إفريقية بالقرب من تونس ، وبينها وبين صقلية مجرى ، ويوجد بها شجر المصطكى ، ويجلب منها التين والقطن الكثير » . وقد صمم موسى بن نصير سنة ٨٨ ﻫ / ٧٠٧ م على الاستيلاء على تلك الجزيرة الهامة ، واتخاذها قاعدة أمامية لأسطوله فى صد هجمات الروم . وقد انتدب لتلك المهمة أحد قادته الأبطال وهو عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى خرج على رأس أسطول قوى من القاعدة البحرية الجديدة فى تونس ، واستولى على جزيرة قوصرة ، وضمها إلى ولاية إفريقية[1] .

وتابع خلفاء موسى بن نصير سياسة الاحتفاظ بتلك الجزيرة فى حيازتهم . ذلك أن الروم عمدوا إلى انتزاعها من أيدى الأسطول العربى خوفاً من قربها من قاعدتهم بصقلية . ومن ذلك أن حبيب بن أبى عبيدة الفهرى سار إلى قوصرة على رأس أسطول آخر سنة ١١٨ ﻫ / ٧٣٦ م ، ودعم السيادة العربية بها . غير أن استيلاء العرب نهائياً على تلك الجزيرة كان سنة ١٣٠ﻫ/٧٤٨م حين أوفد الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهرى حملة بحرية سيطرت تماماً

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : قصة جزيرة قوصرة — المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٥٩ م .

على جزيرة قوصرة ، وجعلتها قاعدة دائمة للأسطول العربى فى غربه البحر الأبيض المتوسط[1] .

وسرعان ما ظهر نشاط الأسطول العربى من قاعدته الجديدة فى جزيرة قوصرة ، إذ خرجت سفنه تباعاً من تلك الجزيرة ، حيث أغارت على صقلية ، وأنزلت التخريب والتدمير بأسطول الروم الراسى فى موانيها . وقد ساعدت تلك الحملات البحرية على دراسة شواطىء صقلية دراسة تامة ، وجعلت العرب على خبرة كبرى بقواعدها ، وخير الطرق للاستيلاء عليها . وظهرت نتائج حملات العرب البحرية التى خرجت من جزيرة قوصرة حين قامت أسرة الأغالبة فى تونس ، إذ اتخذت من تلك الجزيرة قاعدة لتحقيق سياستها فى الاستيلاء على جزيرة صقلية ، وبعث نشاط بحرى عربى حافل فى غربه البحر الأبيض المتوسط .

(١) حسن حسنى عبد الوهاب ، المرجع السالف .

أسطول الأغالبة

أظهر الأسطول العربى منذ نشأته فى شمال أفريقيا نشاطا حافلا . أعاد إلى تلك البقاع ما اشتهر به أهلها من حب للبحار وركوبها . ذلك أن البيئة الجغرافية ربطت بين سكان شمال أفريقيا وبين البحر الأبيض المتوسط منذ أقدم عصورهم التاريخية ، لأن أخصب الأراضى هناك وأوفقها للسكنى وأوفرها ماء هى مناطق الشريط الساحلى الذى يتصل من تونس إلى المحيط الأطلسى ، وخلف ذلك الشريط الساحلى تقف جبال درن أو الأطلس التى جعلت أولئك السكان يتطلعون دائما بأبصارهم إلى البحر ، ويربطون حياتهم به .

ولم تقف هبات الطبيعة لسكان بلاد المغرب عند توجيههم إلى البحر الأبيض المتوسط فحسب ، وإنما كفلت لهم أسباب ركوب هذا البحر وسيادته . فالمناطق الجبلية التى تقع خلف الشريط الساحلى حافلة بالأخشاب اللازمة لبناء السفن ، والتى وفرت عليهم عناء استيراد تلك المادة الخام على نحو ما قاساه غيرهم من سكان مناطق البحر الأبيض المتوسط . ولذا رأى العرب فى بلاد المغرب بيئة بحرية صالحة لا تقل أهمية عن الشام ومصر فى خدمه أساطيلهم .

وظهرت استفادة العرب التامة من المميزات الجغرافية لبلاد المغرب فى بناء أساطيلهم فى غرب البحر الأبيض المتوسط حين قامت الأسر المستقلة وشبه المستقلة فى الممتلكات العربية المطلة على ذلك الشطر الغربى من البحر

الأبيض المتوسط[1] . ونجم عن تلك الظاهرة أن سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية لم يترتب عليه أى تأثير فى سياسة العرب البحرية تجاه الشطر الغربى من البحر الأبيض المتوسط ، وإنما زاد النشاط البحرى العربى قوة وفتوة .

وسبب ذلك أن اتخاذ العباسيين عاصمة لهم فى بغداد النائية على نهر دجلة شجع ولاة المغرب على الاستقلال الذاتى بشئونهم عن الخلافة ، ثم الانفصال نهائيا فيما بعد عن السلطة المركزية فى بغداد . وعمد أولئك الولاة إلى تدعيم سلطانهم بتقوية مراكزهم الحربى ، ولاسيما بناء الأساطيل ، التى تعتبر العمود الفقرى لأية هيئة تريد الاحتفاظ بهيبتها فى تلك الجهات البحرية .

وتعتبر أسرة الأغالبة نموذجا لتلك السياسة الانفصالية التى سادت كيان الدولة الإسلامية زمن العباسيين ، وما ترتب على هذه الظاهرة الجديدة من نشاط بحرى قوى . وتنتسب تلك الأسرة إلى ابراهيم بن الأغلب الذى ولاه الخليفة هارون الرشيد [illegible] شئون المغرب سنة [illegible] هـ / ٨٠٠ م وأطلق يده فى تدعيم [illegible] الأغالبة [illegible] ابراهيم بن الأغلب على الامكانيات [illegible] فى الناحية البحرية . فوجه همه إلى [illegible] بناء مجد بحرى له ولأسرته .

(١) كانت بلاد [illegible] أفريقيا أسبق جهات الدولة الإسلامية ميلا إلى الاستقلال الذاتى بشئونها ، ثم الانفصال نهائيا عن التبعية للسلطة المركزية منذ قامت خلافة العباسيين فى بغداد . وتجلت تلك الميول الانفصالية فى [illegible] الولاة الذين بعث بهم الخلفاء إلى تكوين أسر حاكمة لهم ولسلالاتهم لا تعترف إلا [illegible] الخلافة فى بغداد .

وسارت سياسة ابراهيم بن الأغلب وخلفائه من بعده على تدعيم أقدامهم فى المدن الساحلية التى اشتهر أهلها بالشغب وحب الثورات . واتصف ابناه عبد الله الأول وزيادة الله الأول بالقسوة والحزم فى تنفيذ تلك السياسة الخاصة بإخماد الفتن والقلاقل فى المدن الساحلية ، حتى صارت البلاد تدين لهم بالطاعة[1] . واتجهت أسرة الأغالبة بعد ذلك إلى الاستفادة من المميزات البحرية لولايتهم ، وأعادوا إلى قاعدة تونس البحرية نشاطها وأهميتها .

وظهرت نتائج أعمال الأغالبة البحرية على عهد زيادة الله الأول ، حيث صار له أسطول قوى مرهوب الجانب . وقد اتخذ الأسطول الأغلبى من صقلية ميدانا يعيد فيه قصة الفتوحات البحرية الكبرى التى حدثت زمن الأمويين على عهد معاوية وخلفائه . وكان اتجاه الأسطول الأغلبى إلى صقلية عملا متمما لسياسة العرب البحرية الخاصة بسيادة البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن جزيرة صقلية صارت هدفا لإغارات العرب البحرية منذ استقرارهم على شواطئ الشام ومصر ، وأرسلوا لها أساطيلهم لتدمر قواعد الروم فيها .

ومنذ ظهرت البحرية العربية فى شمال أفريقيا ، والأساطيل تخرج من تونس ، ومن جزيرة قوصرة للمساهمة فى الإغارات البحرية على جزيرة صقلية . وأثبتت تلك الإغارات المتكررة مدى إدراك العرب لخطورة قاعدة الروم البحرية فى جزيرة صقلية وضرورة انتزاعها من أيديهم . ولم يبق أمام العرب غير انتهاز الفرصة المواتية لتحقيق حلمهم البحرى القديم بالاستيلاء على صقلية ، واتخاذها قاعدة لأسطولهم .

(١) انظر ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٣ ؛ ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٤ .

وجاءت تلك الفرصة المواتية على عهد زيادة الله الأول الذى دانت له أرض المغرب بالطاعة والولاء ، والذى صار صاحب أسطول عظيم فى مياه البحر الأبيض المتوسط الغربى . ذلك أن والى صقلية من قبل امبراطور الروم دأب على الإغارة على سواحل أفريقيا منتهزا اشتغال الأغالبة بتدعيم سلطانهم هناك . ومن ثم ماكاد زيادة الله الأول ينتهى من متاعبه الداخلية حتى عمد إلى الانتقام من حاكم صقلية العنيد .

وساعدت أحوال صقلية إذ ذاك على تحقيق سياسة زيادة الله الأول ، ذلك أن نزاعا نشب بين امبراطور الروم ميخائيل الثانى وبين والى صقلية يوفيموس الذى سبق له الإغارة على شواطىء أفريقية . وعندما علم ذلك الوالى أن الامبراطور قد سيّر أسطولا للقبض عليه ، فرّ إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقى وأرسل يطلب النجدة والمساعدة من زيادة الله الأول [1] . وبذلك أتاحت الظروف للأسطول الأغلبى التدخل فى شئون تلك الجزيرة الهامة ، والتى تعد أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط .

وكانت جزيرة قوصرة التى سبق للعرب الاستيلاء عليها منذ ولاية موسى بن نصير قد صارت قاعدة أمامية هامة لأسطول الأغالبة تجاه جزيرة صقلية . ومن ثم صار زحف الأسطول الأغلبى ميسرا وآمنا ، فأعد زياده الله الأول سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م أسطولا يتألف من مائة سفينة تحت إمرة أسد بن الفرات قاضى القيروان لفتح جزيرة صقلية ، تحت ستار مساعدة يوفيموس ، واليها الثائر على امبراطور الروم .

وخرج الأسطول الأغلبى يحمل نحو ١٠٠٠٠ مقاتل و ٧٠٠ فرس من ميناء سوسة . وبذلك بدأ الغزو العربى الحقيقى لجزيرة صقلية . وقد ألقى

(١) المكتبة الصقلية ، ج ٢ ص ٤٢٧ ، ٤٢٩ .

الأسطول مرساه عند مازر ثم تقدم نحو سرقوسة وألقى عليها الحصار . غير أن أسطولا للروم خف لنجدة تلك المدينة ، وجعل الحصار العربى مهمة شاقة . ثم أن وباء انتشر فى المعسكر العربى قضى على أسد بن الفرات القائد العام وعدد كبير من الجيش .

وكادت تلك الحملة البحرية تفشل لولا أسطول أندلسى ساقه الله من الأندلس إلى جزيرة صقلية . وتلك الحقيقة تكشف عن ظاهرة هامة ، وهى أن التعاون البحرى قد بدأ بين أساطيل المغرب وأساطيل الأندلس فى تلك المرحلة الجديدة من نشاط العرب البحرى فى غرب البحر الأبيض المتوسط . غير أن هذا التعاون كان يعوزه التنظيم بسبب افتقار حكام الأسر العربية المستقلة بالمغرب والأندلس إلى التفاهم والتضامن . ومهما يكن من أمر فإن وصول الأسطول الأندلسى أنقذ جيش الأغالبة وقواتهم البحرية من المأزق الذى حل بهم [1] .

ثم جاءت النجدات من تونس ، وساعدت الأسطول الأغلبى على الإستيلاء على « بلرم » أو بالرمو Palermo سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م بعد حصار دام عاماً [2] . وقد هيأ سقوط « بلرم » قاعدة هامة للأسطول العربى فى صقلية ، بسبب ماتتمتع به من موقع استراتيجى ممتاز ، وكانت تلك المدينة فى الأصل مستعمرة أنشأها الفينيقيون ، وظلت محتفظة بمكانتها العظيمة على مر العصور الطويلة . ولذا غدت « بلرم » قاعدة بحرية تساعد القوات العربية على تلقى الأمداد ، والزحف منها على سائر جزيرة صقلية .

وتابع الأغالبة سياستهم البحرية تجاه صقلية برغم المتاعب الجمة التى

(١) ابن عذارى ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٤ .

واجهتهم . فاستولوا سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م على ميناء مسينا رغم شدة مقاومة الروم ، وصار أسطول الأغالبة قريباً من إيطاليا [illegible] آخر ممتلكات الروم في هذا الشطر الأوسط من البحر الأبيض المتوسط [illegible] على أن الأغالبة وجهوا همهم إلى إتمام السيطرة على جزيرة صقلية والاستيلاء على سرقوسة ، تلك القاعدة البحرية [illegible] التي [illegible] عليهم [illegible] هجومهم على صقلية . وبذل أسطول الأغالبة جهداً عظيماً في سبيل تحقيق هذا الهدف ، لأن الروم [illegible] سرقوسة [illegible] إلى الإبقاء عليها شوكة تفسد على الأسطول العربي سيطرته على جزيرة صقلية .

وتجلى نشاط الأغالبة البحري سنة ٢٤٤ هـ حين [illegible] أسطولهم لمنع سفن الروم من الاقتراب من سرقوسة . وكان عدد سفن الروم أربعين مركباً حربياً كبيراً ، استطاع الأسطول الأغلبي أن يهزمها ويأسر منها عشرة برجالها . وانتهت ممتلكات الروم سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م للدفاع عن سرقوسة ، إذ بعثوا أسطولاً [illegible] قوة كبيرة [illegible] في ذلك الميناء [illegible] الأغالبة [illegible] منها مائة[1] .

وبذلك [illegible] التي [illegible] قوات الأغالبة ، وجعلت منها قاعدة [illegible] ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م سقطت طبرمين [illegible] صقلية . [illegible] وقد زار ابراهيم الثاني [illegible] يجعلها قاعدة دائمة [illegible] ولكن هذا الحاكم الأغلبي توفي قبل تحقيق

(١) [illegible] وهي ظاهرة سادت سائر [illegible] البحر الأبيض المتوسط [illegible] من أرض الأندلس .

أمامه ، ودخل في جزيرة صقلية ، التي استغرق فتحها على يد أسرته نحواً من [illegible] صفحة حافلة بالأعمال الجليلة التي قام بها الأسطول العربي في [illegible] الأبيض المتوسط .

[illegible] من المعالم الهامة في التاريخ البحري العربي ، فإن سيطرة الأغالبة [illegible] حوض البحر الأبيض الأوسط والغربي [illegible] الأسطول العربي ينعم بقاعدة هامة جعلت له السيادة على البحر [illegible] تطل عليه إيطاليا . وقد تدخل أسطول الأغالبة فعلاً في شئون البلاد الإيطالية بعد أن سيطر على الشطر الأعظم من جزيرة صقلية . [illegible] بالروم بمدة قليلة صار أمراء البحار الأغالبة ، يتدخلون في المنازعات المحلية التي قامت بين القوى المتنافسة في جنوب إيطاليا [illegible] الإقليم الجنوبي الغربي المعروف باسم قلورية[1] Calabria .

[illegible] الأغالبة البحري في شئون إيطاليا ماحدث سنة ٨٣٧ م [illegible] (وهي نابلي) بالقوات العربية في صقلية ضد [illegible] هذا النزاع المحلي الأغالبة على إرسال أساطيلهم [illegible] شمالي نابلي . وبعد عدة سنوات من دخول الأغالبة [illegible] أمام أوستيا (Ostia) ميناء روما ، على حين [illegible] المدينة الرومانية العتيدة . وتكرر هجوم [illegible] الهامة حتى أن البابا يوحنا الثامن

(١) [illegible] جزء من إيطاليا اسم الجزيرة جريا على عادتهم في تسمية [illegible] قلورية ، جزيرة في شرقي صقلية ، وأهلها إفرنج ، ولها [illegible] منها ابرحوقل : وهي جزيرة داخلة في البحر مستطيلة .

(٨٧٢ — ٨٨٢) رأى إنقاذ روما بدفع الجزية مدة عامين للأغالبة(١) .

ودخل أسطول الأغالبة كذلك البحر الأدرياتي واستولى على مدينة بارة (Bari أي باري الآن) سنة ٨٤١ م واتخذها قاعدة له مدة ثلاثين عاماً . وكانت تلك المدينة ذات موقع هام في شبه جزيرة إيطاليا ، وتعتبر منفذها الرئيسي للاتصال بشرق البحر الأبيض المتوسط . فكان أهالي إيطاليا وتجارها يفدون على باري في طريقهم إلى اليونان أو آسيا الصغرى ، وكذلك للذهاب إلى إقليم الشام طلباً للحج في فلسطين ، حيث الأماكن المسيحية المقدسة .

وتعتبر الحقيقة السالفة مثالا لسمو البحرية العربية في تلك الفترة الحاسمة من نشاطها ، ذلك أن أمراء البحار العرب سمحوا للمسيحيين بركوب البحر الأبيض المتوسط في سفنهم لأداء فريضة الحج في بيت المقدس . وكان الطريق البحري إذ ذاك يبدأ من باري إلى صقلية ومنها إلى مصر ، حيث يتابع الحجاج رحلتهم بعد ذلك براً إلى فلسطين . وقد خلف لنا أحد الحجاج المسيحيين وهو برنارد الرشيد صورة عن ذلك الطريق البحري منذ خروجه من مدينة باري قاصداً الحج إلى بيت المقدس ، وعن التسهيلات التي قدمتها البحرية العربية للحجاج المسيحيين(٢) .

ولم يقف نشاط الأسطول الأغلبي عند جنوب إيطاليا فحسب ، وإنما اتجهت سفنه إلى تدعيم أقدام العرب في بعض جزر البحر الأبيض المتوسط ، التي سبق للسفن العربية الاكتفاء بالإغارة عليها سريعاً ، والعودة بعد ذلك

(١) Hitti, History of the Arabs, 604

(٢) The itinerary of Bernard the wise.

إلى قواعدها سواء في مصر أو الشام . ومن ذلك فتح الأسطول الأغلبي لجزيرة مالطة التي تتمتع بموقع استراتيجي عظيم في الحوض الأوسط للبحر الأبيض المتوسط(١) . وساعد الأغالبة على [illegible] هذا الهدف أمام اقتراب قواعدهم البحرية من مالطة ، ولا [illegible] جزيرة صقلية

ويعتبر الأغالبة بذلك أصحاب [illegible] الأركان ، تهدف إلى الاستيلاء على [illegible] البحر الأبيض المتوسط والتي تتحكم في [illegible] الجغرافي يساعدهم على إدراك أهمية تلك [illegible] البحر الأبيض المتوسط والتي تعد مفتاح [illegible] . ومن ذلك أن جزيرة مالطة ما زالت إلى اليوم تحتفظ بمكانتها [illegible] أهميتها الحربية .

والتمست أساطيل الأغالبة إزاء جزر البحر الأبيض المتوسط التي خضعت لهم بالتعمير ، ونشر أسباب الرفاهية بين سكانها . ذلك أن بعض تلك الجزر كانت [illegible] صغيرة ، ويعيش أهلها عيشة متواضعة بسبب قلة إمكانياتهم الاقتصادية . فعمد الأغالبة إلى نقل سكان من تونس إلى تلك الجزر مثل جزيرة قوصرة ومالطة ، وتركوا آثاراً عربية كثيرة بها ما زالت مظاهرها ملموسة إلى اليوم في لغة أهالي تلك الجزر وعاداتهم(٢) .

(١) Hitti. op. cit, 605

(٢) حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق .

نشاط الأسطول الأندلسي

ساعد الأ[illegible]
الأسطول الأ[illegible]
بحريه [illegible]
سواء [illegible]
على [illegible]
[illegible]
[illegible]
بالأندلس [illegible]

[illegible]
فى [illegible]
الأمو[illegible]
أساطيـ[illegible]
سلطان [illegible]
بشئون الأ[illegible]

[illegible]
سنة [illegible]
بناء [illegible] وأفريقية
وغير[illegible]

للامارة الأموية بالأندلس أسطول عربى قوى أسهم مع سائر الأساطيل العربية الأخرى فى السيطرة على مياه البحر الأبيض المتوسط .

واجه نشاط الأسطول الأندلسى فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ الإمارة الأموية [illegible] — وهى ميورقة ومنورقة ويابسة — وجز[illegible] بسبب اقترابها من شاطىء الأندلس الشرقى . و[illegible] الفرنجة(١) مهاجمة تلك الجزر دون الاستيلاء [illegible] الأندلسى كانت تستهدف الاستيلاء [illegible] وقد أدت تلك السياسة البحرية [illegible] وقوة بحرية جديدة أوربية هى [illegible]

[illegible] الفرنجة إلى الامبراطور شرلمان الذى [illegible] (وهى فرنسا الآن) سنة ٨٠٠ م . [illegible] قوة بحرية تكفل له منافسة الروم ، [illegible] على الوقوف فى وجه الأساطيل [illegible] جنوب فرنسا .

[illegible] القوتين البحريتين فى غرب البحر الأبيض [illegible] سنة ٨٠٦ م لمهاجمة جزيرة قورسقة ، [illegible] كان ملكا على إيطاليا ، أسطولا [illegible]

(١) [illegible] على القبائل الجرمانية [illegible] التى [illegible] أطلق عليها مؤرخو وكتاب العرب اسم أرض الفرنجة . [illegible] الأساطيل العربية التى خرجت من الأندلس ، وتلك [illegible]

لمطاردة السفن الأندلسية . وقد آثر الأندلسيون الانسحاب وفق خطة رسموها لأنفسهم . غير أن كونت جنوة التابع الفرنجة ويدعى آدمر (Admer) طمع فى مطاردة السفن الأندلسية [illegible] فعاد الأسطول الأندلسى إلى مهاجمة سفن جنوة [illegible] حملهم أسرى إلى الأندلس . وقد اضطر [illegible] إلى التدخل وإطلاق سراح الأسرى من أهل جنوة [illegible] وبذلك سجل الأسطول الأندلسى أول نصر [illegible] البحر المتوسط الغربى .

وفى سنة ٨٠٨ م عاد الأسطول الأندلسى [illegible] ولكنه خسر المعركة وفقد ثلاثة عشر مركباً . [illegible] قوة بحرية من عرب المغرب ساعدت الأندلسيين على [illegible] والعودة منها محملين بالغنائم . وتكررت بذلك قصة التعاون البحرى بين المغرب والأندلس ، الذى ظهر جلياً وتلقائياً فى تلك الفترة من القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى .

وبرغم مقاومة الأساطيل الفرنجية لهجمات الأندلسيين فإن الامبراطور شرلمان رغب فى عقد هدنة مع الإمارة الأموية بالأندلس ليأمن بأس بحريتها . وفى سنة ٨١٠ م عقدت أول هدنة بين الفرنجة والأمويين بالأندلس ، تجددت بعد ذلك بعامين مرة أخرى . غير أن الأسطول الأندلسى لم يغض الطرف عن قورسقة ، وعرقلة نشاط الفرنجة البحرى بها ، فهاجم تلك الجزيرة سنة ٨١٣ م[1] ، على حين تمد عبد الرحمن أمير

---

(١) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص [illegible]

قرطبة إلى [illegible] من الفرنجة [illegible] مساعدة الجزيرة .

وفى سنة ٨٢٠ م انتقل الأسطول الأندلسى [illegible] جزيرة سردانية . وهناك [illegible] أغرق ثمانية [illegible] حدث انشقاق فى [illegible] الإمارة الأندلسية [illegible] إثارة الفتن فى مدن الأندلس [illegible] حب البلاد [illegible] . وحمل السلطان [illegible] والانصراف عن التدخل [illegible] .

وازدادت [illegible] السفن الأندلسية وهجماتها [illegible] شواطئ فرنسا الجنوبية بعد ذلك [illegible] الفرنجة [illegible] البحرية الأندلسية على تحقيق أهدافها [illegible] الداخلى الذى [illegible] أفراد البيت المالك الفرنجى ، [illegible] تماماً فى فرنسا [illegible] ٨٤٧ م دخلت السفن الإسبانية [illegible] (Arles) ونواحيها ، ثم عادت إلى [illegible] دون أن [illegible] أذى .

وفى سنة [illegible] هاجمت السفن الإسبانية [illegible] وجميع الساحل المجاور لها [illegible] وتوغلت القوات الإسبانية فى أرض فرنسا تاركة سفنها على الساحل . وفى أثناء [illegible] معضادة عرقلت ركوبها السفن ، خرج الأهالى حاملين السلاح وهجموا على القوات الأندلسية وأسروا منها عدداً كبيراً [illegible] غير أن عامل سرقسطة بادر بإنقاذ القوات

البحرية وزحف بجيشه على جنوب فرنسا ، واضطر ملكها شارل الأصلع أن يطلق سراح من عنده من الأسرى .

على أن نشاط البحرية الأندلسية بلغ ذروته فيما بين سنتى ٨٩١ ، ٨٩٤ م إذ خرجت جماعة من المغامرين الأندلسيين من رجال البحرية على ظهر سفينة أقلعت بهم من سواحل [illegible] قاصدين ساحل بروفانس بجنوب فرنسا . وتمكنت تلك الجماعة [illegible] (Saint Troc[illegible] [illegible] على شاطىء بروفانس [illegible] الخليج ، ويعرف هذا الموضع [illegible]

وكان اختيار [illegible] الجبل [illegible] يحتاجون [illegible] معقلا [illegible] تدعو [illegible] من [illegible]

[illegible] مركزا [illegible] صغيرة [illegible] كثرتهم [illegible] المقاومة [illegible] امبراطور الروم [illegible] أمام شدة الإغارات [illegible] البحرية في القسطنطينية

ووصلت طلائع نجدات الروم البحرية سنة ٩٣١ م ، إذ جاء أسطول فى تلك السنة لمساعدة الفرنجة على مقاومة إغارات الأندلسيين البحرية على إقليم فريئيه (Freinet) . ولكن أسطول الروم عجز عن إنقاذ أهالى الإقليم الفرنجى ، إذ فى سنة ٩٤٥ م أغار الأندلسيون على مدينة فريجوس [illegible] معظم سفن الفرنجة ، فهرب أهلها وتركوا الساحل ، وانسحبوا إلى [illegible]

[illegible] هوج (Hugues) على إعداد حملة برية [illegible] الأندلسيين من قاعدتهم البحرية فى فراكسينتوم . [illegible] لإمبراطور الروم وطلب منه [illegible] على قاعدة العرب البحرية ، [illegible] البحرية التى زودت بها سفن الروم

[illegible] فراكسينتوم ، على حين هاجم [illegible] فى الخليج . وكانت تلك الحملة [illegible] المراكب الموجودة فيها ، [illegible] إلى الجبال والاعتصام بها . غير [illegible] الفرنجة تدخلت مرة أخرى بحيث ساعدت [illegible] على شاطىء إقليم بروفنس . ذلك [illegible] اشتباك ذلك الحاكم مع العرب . [illegible] فاضطر الكنت هوج إلى مهادنة [illegible] مقابل مساعدتهم له فى حربه ضد

وقد ترتب على تلك الحادثة ازدياد النشاط البحرى [illegible] فراكسنيتوم . فبسط العرب سلطانهم على [illegible] ، وأدخلوا نيس (أونيقة) فى التبعية لهم[1] . وفضلاً [illegible] العرب بفضل النجدات البحرية والإمدادات التى [illegible] الأندلس [illegible] إغاراتهم على المناطق الخلفية من جنوب أوربا [illegible] أمراء الدول الأوربية إلى الاتصال بالخلفاء الأمويين [illegible] المهادنة ، وكف أذى الإغارات العربية على [illegible] الناصر بقرطبة محط رحال سفارات أوربية [illegible] ، وتعلن إجلالها لسلطانه .

على أن أهم شىء خلفته البحرية الأندلسية فى مياه البحر الأبيض المتوسط هو إظهار روح الفدائية والمغامرة البحرية — إذا صح ذلك التعبير الحديث — عند العرب . ذلك أن كثيراً من هجمات العرب البحرية قامت من الأندلس بدافع من حب المغامرة والجهاد ، أكثر من تنفيذها لأوامر السلطات المركزية . وقد خلقت تلك الأحداث التى [illegible] الأندلس روحاً جديدة عند سكان البلاد العربية على الشواطئ الغربية للبحر الأبيض المتوسط . وكانت آية تلك الروح الجديدة هو إنشاء قواعد بحرية عديدة ، صارت فيما بعد مراكز أمامية للأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط .

وساعد على ازدهار تلك الروح البحرية الجديدة امتزاج النزعات الدينية بحب الجهاد فى سبيل إعزاز الدين الإسلامى عند عرب المغرب . فكانت تكثر فى مناطق أسبانيا الإسلامية المراكز الحربية التى امتلأت بأعداد وافرة من المقاتلين الذين لا يريدون شيئاً سوى الجهاد فى سبيل الله

(١) شكيب أرسلان ، نفس المرجع ، ص ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

[illegible] أقاموا فى أماكن خاصة [illegible] الرباط . وكانت [illegible] الأعداء . لتبادر [illegible] قوات [illegible] القواعد البحرية [illegible] المغامرون البحريون [illegible]

[illegible] السلطات الأندلسية لتلك الإغارات [illegible] أمراء الأندلس لم يتركوا [illegible] بادروا بمساعدتهم وإنقاذهم [illegible] المتوسط تقليداً بحرياً فريداً [illegible] البلاد العربية . فقد تردد صدى هذا النشاط [illegible] البحر الأبيض المتوسط الذى [illegible] فى بغداد ، وصار [illegible] مصر والشام ، أشبه [illegible]

الفصل الخامس

الاسطول العربي

في [illegible]

فتح إقريطش (كريت)

تردد صدى النشاطات [illegible] الأندلس [illegible] المغامرة
في شرق البحر الأبيض [illegible]
وكانت أولى مظاهر هذا [illegible]
[illegible]
إقريطش (كريت) [illegible]
فقد [illegible]
وجعلـ[illegible]
العرب [illegible]
وكان [illegible]
الحكم [illegible]
ترتمت [illegible]
حنقوا [illegible]
الفقهاء [illegible]
هذا الحاكم الفاسق [illegible]
[illegible]

ذات يوم أحد شوارع العاصمة ، إذ هجم عليه الناس ورموه بالحصباء وسط تصفيق الفقهاء وتشجيعهم . ثم تطور هذا السخط أخيراً إلى ثورة جارفة سنة ٨١٤ م حين حاصر الثوار الحكم فى قصره وضيقوا عليه الخناق .

غير أن حرس الحكم استطاعوا إخماد الفتنة والقبض على مدبريها . ثم إن السلطات عاملت أهل هذا الحى الثائر بمنتهى الشدة والقسوة ، فصلبت زعماءه الثلثمائة ، وطالبت بعد ذلك من سكانه جميعاً أن يبرحوه فى مدى ثلاثة أيام . وأخذ سكان الربض يرحلون خارج الأندلس ، حيث بادرت السلطات بتدمير حيهم . فلجأ ثمانية آلاف منهم إلى مراكش . على حين [illegible] — يبلغ نحواً من خمسة عشر ألفاً — سيرهم إلى مصر ، [illegible] الاسكندرية [illegible] وكان أولئك المهاجرون الذين حلوا بأرض مصر هم [illegible] كريت .

[illegible] الأندلسيين إلى الاسكندرية ١٩٩هـ/٨١٤م :

[illegible] انتهز السكان فرصة الخلف
[illegible] المناسبة [illegible] وهيأت هذه الأحوال
[illegible] عليهم زعيماً [illegible]
[illegible] الأندلسيون أصحاب الكلمة
[illegible] حتى انتصر الخليفة المأمون
[illegible] سنة ٨٢٥ م إلى مصر [illegible]

[illegible]

[illegible] طاهر فى إخماد الثورات الأهلية فى مصر [illegible] إلى الاسكندرية [illegible] الأندلسيون . ولما أحس أولئك [illegible] عقدوا معه صلحاً فى ربيع الأول [illegible]

سنة ٢١٢ هـ / يونيو ٨٢٧ م تعهدوا فيه بأن يغادروا مصر ، وألا ينزلوا بأرض تابعة للخلافة العباسية ، وإنما يحطون رحالهم فى بلد تابع للروم[1] . وقد اختار الأندلسيون الاستقرار فى إقريطش [illegible] وطناً دائماً لهم .

وكانت جزيرة إقريطش تابعة إذ ذاك للروم الذين حرصوا على الاحتفاظ بها فى قبضتهم بسبب ما تتمتع به من مكانة استراتيجية ، تكفل لأساطيلهم قاعدة ممتازة فى القسم الشرقى من البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن هذا القسم الشرقى يتصف بكثرة بحاره الداخلية التى تتحكم فيها الجزر الصغيرة لسيطرتها على مسالكها الضيقة المحدودة ، وغدت هذه المضايق البحرية الواقعة بين الجزر مطمح أية قوة تبغى لنفسها السيادة والسيطرة على مياه تلك البحار .

غير أن جزيرة إقريطش تمتعت بمركز الصدارة على تلك المنطقة [illegible] من البحر الأبيض المتوسط ، ذلك أن بحر إيجه الذى [illegible] القسط الوافر من الجزر والبحار الداخلية السالفة يشبه حوض [illegible] تمتد عبرها جزيرة كريت . وتقسم مدخله إلى شطرين تتحكم الجزيرة فى كل منهما . ومن ثم كان سادة كريت فى العصور القديمة رجال بحار ممتازين ، أخضعوا لسلطانهم مياه البحر الأبيض المتوسط من برقة إلى بلاد اليونان ، إذ تحكموا فى السفن التى تمخر عباب تلك المياه ، وفاضت خزائنهم بالمال ، حتى أطلقوا على تلك الرقعة من الماء اسم « البحر الذهبى[2] » .

وتمتعت كريت إلى جانب موقعها الجغرافى الممتاز ، بمقومات أخرى

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) Semple, op. cit, 74

جعلت [illegible] سهل ساحلى خصيب [illegible] ويغمرهم بأود بعض [illegible] صغيراً لبناء أسطول [illegible] أو الدفاع عن سواحل [illegible] الجزر المحيطة بهم . ومن ثم [illegible] مصدراً عظيماً للجند المرتزقة [illegible] بها قوتهم [illegible]

[illegible] البحر الأبيض المتوسط [illegible] وعرفت أساطيل [illegible] جنادة بن أمية الأزدى [illegible] (٧٨٦ — ٨٠٩ م) [illegible] قائد أساطيل الخلافة [illegible] ولكن تلك المحاولة الأخيرة [illegible] نصيب المهاجرين الأندلسيين [illegible][2] بسبب ما اتصفوا به من روح الإقدام والمغامرة .

ويعتبر اختيار مهاجرى الأندلس جزيرة إقريطش مقراً لهم أمراً وليد الدراسة والتجربة ، لأنهم عرفوا أثناء إقامتهم بالاسكندرية شيئاً عن الجزيرة وأحوالها . ذلك أن الأندلسيين لم يركنوا إلى الهدوء والدعة

(١) Semple, op cit. 639, 656

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣١١ ؛ البلاذرى ، نفس المرجع ، ص ٢٤٥

في الأسكندرية وإنما بعثوا سفنهم تجوب شرقى بحر الأبيض المتوسط إرضاء لميولهم ونزعاتهم البحرية . وقد أغارت تلك السفن في أثناء تجوالها على إقريطش وعادت منها إلى الاسكندرية محملة بالغنائم ، وبالأخبار الرائعة عن ثراء تلك الجزيرة وخيراتها .

وتكررت إغارات بعض الأندلسيين بالاسكندرية على إقريطش ، حتى استطاعوا أخيراً سنة ٨٢٣ م أن يؤسسوا لهم مستعمرة هناك حول خليج (Suda) ، وجعلوه مرسى [illegible] لسفنهم(١) ، وساعد الأندلسيين على تحقيق ذلك الهدف انصراف امبراطور الروم ميخائيل الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩م) إلى القضاء على الفتن التي قامت في آسيا الصغرى [illegible] إقريطش تحت رحمة أبا حفص زعيم الأندلسيين بالاسكندرية ، الذي غادر تلك المدينة بعد اتفاقه مع [illegible] قائد الخليفة المأمون على ترك الديار المصرية .

وقد حمل [illegible]

قاصداً إقريطش [illegible] الجزيرة

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) Finlay, [illegible]

إلى شاطىء إقريطش وتوغلوا داخل الجزيرة ، أمر بحرق السفن جميعها حتى يحملهم على التخلص من أية فكرة قد تساورهم في الرجوع إلى الاسكندرية . وعندما عاد الأندلسيون من غزوتهم داخل الجزيرة ورأوا النار مشتعلة بالسفن ، ثارت ثائرتهم ، واتهموا زعيمهم أبا حفص بالجنون حين اعترف لهم بأنه هو الذي أمر بإحراقها . غير أن أبا حفص قبض سريعاً على ناصية الموقف وقال لهم : « لم تشكون ، لقد جئت بكم إلى أرض تفيض لبناً وعسلا ، وهذا هو وطنكم الحقيقي ؟ أريحوا أنفسكم من عناء التعب ، وانسوا وحشة وطنكم الأول(١) » .

وكان استقرار الأندلسيين أولا بالقرب من خليج سودا ، حيث شيدوا لهم حصناً ، وأحاطوا مستعمرتهم بخندق يحميهم شر هجوم مفاجىء . غير أن أحد رهبان جزيرة كريت دل أولئك الغزاة الجدد على مكان آخر أكثر ملاءمة وصلاحية في الجهة الشرقية من الجزيرة ، فأسسوا لهم هناك عاصمة أقاموا بها حصناً وأحاطوها بخندق كذلك . ومن هذا الخندق أخذت العاصمة اسمها والذى تعرف به اليوم وهو (كانديا) (Candia)(٢) . وهذه الظاهرة الخاصة بتأسيس حاضرة للأندلسيين في كريت تتفق مع سياسة العرب المسلمين في تدعيم فتوحاتهم ، إذ أسسوا من قبل الفسطاط بمصر والقيروان بتونس وغيرهما إبان فتوحاتهم الأولى ، وتجددت تلك الظاهرة مرة أخرى في جزيرة إقريطش ، التي غدت مقراً للأسطول العربي في شمال البحر الأبيض المتوسط .

وتنهض هذه الحقيقة السالفة دليلا يهدم ما تردده المراجع الأوربية الحديثة عن وصف نزول العرب الأندلسيين بأرض إقريطش بأنه ضرب

(١) Gibbon, op. cit. II, 820.

(٢) Finlay, op. cit. 136.

من أعمال القراصنة ، وإصرار هذه المراجع على ترديد تلك النغمة لا يخلو من تعصب ذميم ، لأن العرب لم يحترفوا القرصنة فى يوم من الأيام . ويعزى ذيوع تلك الفرية التى يسميها الكتاب الأوربيون بالقرصنة إلى أن الأسطول العربى قام من كريت بإغارات متوالية على جنوب أوربا وجعل قواتها البحرية مكتوفة الأيدى تماماً .

ومما ساعد إقريطش على أن تكون قاعدة هامة للأسطول العربى هو اعتراف ولاتها بالتبعية للخلافة العباسية ، وغدت جزيرتهم تابعة لمصر من حيث التقسيم الإدارى[1] . وكفل هذا الوضع السياسى الجديد لإقريطش مكانة عظمى فى تاريخ البحرية العربية ، إذ صارت المساعدات البحرية ترد إليها من مصر والشام ، على حين قام أهلها ببناء أسطول جديد ، حيث أمدتهم غابات جبال « إدا » (Ida) بما احتاجوا إليه من أخشاب[2] .

وجاء استيلاء العرب على إقريطش وتحويلها إلى قاعدة لأسطولهم مفاجأة أذهلت سلطات الروم . ذلك أن ضياع إقريطش من أيديهم أدى إلى انهيار خططهم البحرية فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ومن ثم بدأ الامبراطور ميخائيل الثانى إعداد قوة بحرية لاخراج العرب من إقريطش قبل أن تستقر أقدامهم بها . فبعث حملة بحرية إلى إقريطش سنة ٨٢٨م أى بعد نزول العرب الأندلسيين مباشرة بأرض تلك الجزيرة . وتولى قيادة تلك الحملة فوتيناس Photinas ، أعظم أمراء البحار الروم ، وممن يمتون بصلة نسب وثيقة لأعرق الأسر اليونانية . وكانت سلطات الروم تعلق الكثير من الآمال على مهمة هذا القائد الحسيب النسيب .

ولقد خاب ظن الروم ، ذلك أن فوتيناس ما كاد يقترب من إقريطش

(١) Vasiliev, op. cit, 156.

(٢) Gibbon, op. cit, 820.

حتى أدرك صعوبة غزوها بسبب قلة ما لديه من قوات بحرية وبرية ، فالجزيرة معقل حصين ، فضلا عن يقظة العرب وحراستهم الشديدة لها . ولذا أرسل فوتيناس يطلب إمدادات ، [illegible] سلطات الروم على عجل تحت إمرة قائد آخر من كبار قادة الروم هو داميان . غير أن تلك الأساطيل والقوات [illegible] من [illegible] قاعدة الأسطول العربى فى إقريطش ، [illegible] الشامرة ، لم يهنوا أمام [illegible] بالشاطىء . وقد وقع داميان [illegible] الأصل العريق ، فى [illegible] شمال الخندق عاصمة إقريطش [illegible] إلى الامبراطور[1] ، ويكشف [illegible] القاعدة البحرية الجديدة للأسطول العربى فى إقريطش .

غير أن الامبراطور ميخائيل الثانى أبى أن يفقد الأمل ، وصمم على استعادة إقريطش مهما كلفه ذلك من ثمن خوفاً على انهيار قوة بلاده البحرية . فأعد أسطولا آخر كبيرا ، عهد به إلى أمير البحر العام « كراتيروس » (Krateros) . وجاءت سفن هذا الأسطول وعددها سبعين سفينة كبيرة من موانى آسيا الصغرى الغربية التى اشتهرت بشجاعة بحارتها وجودة تدريباتهم . وتروى مراجع الروم أن أسطولهم نال نصراً فى المعركة التى دارت رحاها على الشاطىء والتى ظلت مستعرة من مطلع الشمس إلى مغربها ، وأن العرب لجأوا تحت جنح الظلام إلى داخل الجزيرة .

ولم يتابع الروم جهودهم معتقدين أن العرب قد هزموا نهائيا ، وأخذ[illegible]

(١) Cedrenus, Annals, 418

سوف يتسللون فى صباح اليوم التالى . ولكن يبدو أن انسحاب القوات العربية كان خطة مرسومة ، إذ جمعوا صفوفهم أثناء الليل ، وتسللوا إلى الساحل ، واستولوا على أسطول الروم الراسى هناك ، ثم فاجأوا معسكر الروم ، وقلبوا مرح جنوده ومجونهم الذى كانوا يقضون به أمسيتهم إلى أنين وجراح مثخنة . غير أن أمير البحر كراتيروس تنكر ، وتمكن من الهرب على ظهر سفينة تجارية حملته إلى جزيرة كوس (Cos) بالقرب من إقريطش ، ولكن رجال الأسطول العربى ، أدركوا تلك الخدعة ، وسارعوا إلى مطاردة تلك الشخصية الخطيرة فى ميدان العمليات البحرية ، وقبضوا عليه بجزيرة كوس ، ثم نقلوه إلى اقريطش حيث أعدم[1] .

وهكذا أنزل الأسطول العربى من قاعدته الجديدة فى إقريطش هزيمتين ساحقتين لشخصيتين من أعظم أمراء البحار فى دولة الروم ، كما أطاح بحملتين بحريتين ، كرست لهما سلطات الروم الشيء الكثير من جهودها وماليتها . وفضلا عن ذلك فإن هذا الفوز البحرى العربى ضمن استقرار إقريطش قاعدة للأسطول ، وحمل الروم على التخلى عن مشاريعهم لاستردادها . فقنعت دولة الروم بأن تكرس نشاط أساطيلها للدفاع عما تبقى لها من جزر فى بحر إيجه ، وتدفع عنها بأس أساطيل اقريطش العربية ، التى بدأت تبسط نفوذها على تلك الجزر المجاورة . ومن ذلك أن الامبراطور ميخائيل الثانى أعد أسطولا حشد له خيرة رجال دولته ومواردها ، كما أنفق عليه بسخاء ليستطيع حراسة جزر بحر إيجة . وقد حاول هذا الأسطول استعادة بعض الجزر الصغيرة التى دخلت فى التبعية لإقريطش[2] ، ولكن لم يكتب له الفوز .

---

(١) Cedrenus, op. cit, 420

(٢) Vasiliev, op. cit, 61

وترتب على تلك الأوضاع الخاصة بضعف أسطول الروم تطور فى سياسة الأسطول العربى المقيم بإقريطش ، إذ انقلب من الدفاع إلى الهجوم وإعلاء راية البحرية العربية مرة أخرى فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وعاصر هذا النشاط البحرى الهجومى عهد الخليفة المعتصم العباسى ، صاحب الجولات الحربية مع الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢) ، والتى كان أشهرها فتح عمورية . إذ بدأت أساطيل إقريطش المظفرة تهاجم أساطيل الروم فى جزر بحر إيجه ، وتطاردها فى كل مكان . ومن ذلك أن أساطيل أقريطش نالت نصراً مبيناً على أسطول الامبراطور ثيوفيل بالقرب من جزيرة ثاسوس (Thasos) ، ثم تابعت نشاطها تدريجيا حتى بلغت إغاراتها فى أواخر عهد هذا الامبراطور إلى ســواحل آسيا الصغرى نفسها سنة ٨٤١ م[1] .

وأثبت عرب إقريطش فى تلك المرحلة من نشاطهم البحرى فهما للاحوال الداخلية لدولة الروم ، والإفادة منها فى نضالهم . ومن ذلك ما حدث سنة ٨٤٣ م ، إذ أعد أحد القادة الروم ممن يتولون منصب الوصاية على الامبراطور ميخائيل الثالث حملة للهجوم على إقريطش يبتغى بها لنفسه الشهرة والمجد ، لأن تلك الجزيرة صارت شجى فى حلق الروم ، وسبيلا يتعلل الطامعون فى السلطان إلى استغلاله لتحقيق مآربه . ونجح هذا القائد ويدعى ثيوكيستوس (Theokistos) فى مواجهة الخندق عاصمة إقريطش وإلقاء حصار شديد عليها بأساطيله وجنوده . ولكن عرب إقريطش حملوه على رفع هذا الحصار والمضاء على خطته التى كادت تنجح بسبب غيبة الأسطول العربى فى جزر

---

(١) Finlay, op. cit, 137

بحر إيجه . إذ دبرت سلطات إقريطش خدعة أشاعوها بين جند الروم مستهدفين وصولها إلى قائدهم ثيوكيستوس ، وذلك أنهم رشوا بعض ضباط الروم على أن يرددوا بين القوات وبحارتهم المحاصرين للخندق شائعة مؤداها أن الإمبراطورة الأم ، الوصية على ميخائيل الثالث رفعت أحد القادة من منافسى ثيوكيستوس إلى مرتبة شريكها فى مجلس الوصاية ، وأبعدته بذلك عن ميدان النفوذ والسلطان . وما أن بلغت تلك الوشاية مسامع ثيوكيستوس حتى أسرع عائداً إلى القسطنطينية تاركا جيشه وأسطوله تحت رحمة عرب إقريطش (١) . واستطاعت قوات إقريطش هزيمة أسطول الروم وتدمير قواته ، واستردت مكانتها وسيطرتها على قواعد الروم البحرية .

وفى سنة ٨٦٠م انتهز أسطول إقريطش انشغال سلطات القسطنطينية بالدفاع عن مدينتهم إزاء إغارة مفاجئة شنتها جماعات الروس ، وهاجم جزر سيكلاديس (Cyclades) وشواطىء آسيا الصغرى وعاد بغنائم وافرة . وكان امتداد نشاط أسطول إقريطش إلى شواطىء آسيا الصغرى يسير وفق خطة مرسومة ، إذ كانت القواعد البحرية فى هذا الشاطىء مراكز يتجمع فيها سفن الروم وجنده التى تبغى الهجوم على جزيرة إقريطش . ولذا نجحت هجمات أسطول إقريطش فى نشر الفوضى فى تلك القواعد البحرية ، وتحطيم تجمعات الروم فى جزيرة نيون Neon سنة ٨٦٦ م (٢) .

وبذلك غدت حركات أساطيل إقريطش مثار فزع وقلق فى دولة الروم .

---

(١) Bury, Roman Empire, 291, 292.

(٢) Vasiliev, op cit. 212 - 213.

واتضح من الأحداث الداخلية لتلك الدولة فى هذه الفترة من نشاط العرب البحرى أن قادة الروم لم يكونوا جادين فى إعداد الحملات البحرية التى بعثوا بها لإخراج العرب من إقريطش والقضاء على قاعدة الأسطول العربى بها . إذ غدت أعمال أولئك القادة ضد إقريطش ستاراً أخفوا وراءه أطماعهم السياسية ، وسبيلا لتحقيق مآربهم الشخصية . وقد تجلى ذلك كله فى الحملة البحرية التى أعدتها دولة الروم ضد إقريطش سنة ٨٤٣ م .

أخذت التيارات الخفية فى بلاط الروم تحدث أعمالها بجلاء أثناء الاستعدادات البحرية لغزو إقريطش . وكان الموقف السياسى فى القسطنطينية يتلخص إذ ذاك فى أن مجلس الوصاية على الامبراطور ميخائيل الثالث قد تقلص وتلاشى بسبب انفراد قائد يدعى برداس ، وهو أخو الإمبراطورة الأم الوصية ، بالسلطة والهيمنة على شئون الدولة . وساعد برداس على تحقيق مطامحه خلو الامبراطور القاصر ميخائيل من كل صفات تؤهله لمنصبه العظيم ، إذ اهتم بالملاهى فقط وحفلات السباق ومصارعة القواد والإدمان على الخمر ، وهو فى هذا السن الصغير ، حتى منحه التاريخ لقب ميخائيل السكير .

واتخذت أساطيل إقريطش من تلك الفوضى الضاربة فى بلاط القسطنطينية فرصة لتوسيع دائرة نشاطها . غير أن برداس خشى انقلاب شعوب سكان دولته عليه بسبب تلك الإغارات البحرية ، وصمم على أن يدعم هيبته ، وما وصل إليه من نفوذ فى الدولة بإعداد حملة لإخراج العرب من إقريطش . على أن أحداث البلاط البيزنطى جرت إذ ذاك بما لا يهوى برداس ، إذ أن الامبراطور السكير أظهر ضجره من خاله برداس ، وأخذ يعمل على إقصائه من الدولة . وكان للامبراطور تابع أرمنى الأصل مقدونى الموطن اسمه

باسل، اتفق معــــه على اغتيال برداس[١]

وسنحت الفرصة لتنفيذ المؤامرة حين خرج برداس إلى آسيا الصغرى ليعد أساطيل الروم للهجوم على إقريطش. ذلك أن الأمبراطور خرج ومعه تابعه باسل إلى آسيا الصغرى لتوديع برداس قبل قيامه بالذهاب إلى إقريطش. وهناك ظل الأمبراطور فترة طويلة لا يسمح لبرداس بالرحيل، برغم انتهاء الاستعدادات البحرية والحربية. ولما استبطأ برداس الحصول على أمر الأمبراطور ذهب لمقابلته واستئذانه فى القيام بالحمـــلة. وفى هذه المقابلة تم ارتكاب الجريمة التى بيتها الأمبراطور مع تابعه باسل، إذ هجم الحرس الأمبراطورى على برداس وقطعوه إرباً[٢]

وترتب على تلك المؤامرة انهيار تلك الحملة البحرية الكبرى للهجوم على إقريطش، التى ظلت طوال القرن التاسع الميلادى الصخرة التى تحطمت عليها كل مجهودات الروم، وما حشدته لها سلطات القسطنطينية من أساطيل وعتاد. وقد اضطرت دولة الروم إلى خطب ود حكام إقريطش العرب بعد أن تبين لهم ما هم عليه من قوة وبأس، واعتمدت فى ذلك على الوسائل السلمية، حيث تجلى ذلك فى رسالة ودية بعث بها بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكوس فى أوائل القرن العاشر الميلادى إلى حاكم إقريطش جاء فيها ما يأتى:

«إلى الأمجد الأشرف الأعز، أمير جزيرة إقريطش، إن أعظم قوتى العالم أجمع، قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين.»[٣]

---

(١) Finlay, op. cit, 172—173

(٢) Ibid, 193

(٣) Vasiliev, L'Empire Byzantine I, 405

تدعيم القوات البحرية

فى مصر والشام

ترتب على نشاط الأسطول العربى فى إقريطش، ومحاولات الروم المتكررة للحد من نشاط هذا الأسطول اهتمام السلطات العباسية فى بغداد بتدعيم قواعدها البحرية فى مصر والشام. ذلك أن سلطات الروم البحرية وجدت نفسها مضطرة أثناء نضالها مع أسطول إقريطش إلى القيام باغارة كبرى مفاجئة على مدينة دمياط. ففى سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م أقلعت بعض سفن من أسطول الروم إلى الشواطىء المصرية وصبت جام غضبها من نشاط أسطول إقريطش على مدينة دمياط.

وكان الهدف من تلك الإغارة هو قطع الاتصال والمعونة البحرية التى قامت بين مصر وإقريطش، والتى غدت خطراً جسيما يتهدد قواعد الروم البحرية فى آسيا الصغرى. وحدثت تلك الإغارة فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (٨٤٧ — ٨٦١ م / ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) ووالى مصر إذ ذاك هو عنبسة ابن اسحق. وكانت عدة أسطول الروم الذى هجم على دمياط ثلثمائة سفينة، على كل مائة منها أمير بحر يتولى قيادتها. واضطلع أمير البحر الذى تولى القسم الثانى من أسطول الروم، وهو الذى يسمى فى المراجع العربية «بابن قطونة»، بالهجوم على دمياط[١]، على حين قام القسمان الآخران من أسطول الروم بحماية ظهر قسميهم الأول.

---

(١) الطبرى، نفس المرجع، ج ١١ ص ٤٨.

ويدل اليوم الذى حدد للهجوم على دمياط ، وهو ١٠ ذى الحجة سنة ٢٣٨ هـ / ٢٢ مايو سنة ٨٥٣ م على انتهاز الروم والعرب لكل فرصة مواتية لنيل بعضهم من بعض ، جريا على السياسة التى سادت علاقتهما البحرية فى تلك الفترة من النضال . فقد صادف يوم إغارة أسطول الروم على دمياط أول أيام عيد الأضحى ، والمدينة خلو من حاميتها التى استدعاها الوالى عنبسة ابن اسحق للاشتراك فى عرض حربى ، رغب فى أن يجعله أكبر عرض حربى ممكن . ولا يقبل أن محض الصدفة أو اتفاق الأحداث هى التى جعلت أسطول الروم يهجم على دمياط وهى عارية من رباطها المدافع عنها .

ومهما يكن من أمر فان موقع دمياط سهل على الروم العبث والتخريب فيها على نحو كبير . فدمياط العصور الوسطى تختلف عن دمياط الحالية التى تقع على الضفة التى لمصب فرع دمياط ، على بعد اثنى عشر كيلو متراً من البحر الأبيض المتوسط ، ويفصلها عن بحيرة المنزلة شريط أرضى اتساعه كيلو متر واحد . ولكن يستدل من أقوال الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى أن دمياط كانت تقع على قطعة من الأرض مستطيلة تمتد بين مصب فرع دمياط والبحر الأبيض المتوسط[1] ، كما أن الشريط الأرضى الذى يفصلها عن بحيرة المنزلة كان من ضيق المسافة بدرجة جعلت مياه الفيضان تعلو عليه وتغمره حتى تبدو دمياط كأنها جزيرة منعزلة فى الماء[2] .

وقد اتخذ ابن قطونة بحيرة المنزلة ميدانا لبدء إغاراته البحرية ، وهاجم دمياط بسفنه التى كانت تقل خمسة آلاف رجل تقريباً . ففزع أهل المدينة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ؛ ابن حوقل ، كتاب المسالك ص ١٠١ .

(٢) The Itinerary of Bernard the wise, 6.

لهذا الهجوم المفاجئ ، وتحول سكانها عن الغرب عبر المخاضات التى كانت تفصل المدينة عن الأرض المحيطة بها ، ولكن هلك كثير منهم فى تلك المحاولة على حين أشعل الروم النار فى المدينة المهجورة وأعملوا فيها النهب والسلب[1] .

ومما يدل على أن تلك الإغارة [illegible] أهداف أوسع من السلب الذى جرت عليه الإغارات التقليدية فى ذلك [illegible] أنها كانت جزءا من سياسة الروم إزاء أسطول إقريطش ، أن جند الروم استولوا على مؤن وذخيره فى دمياط كانت معدة للشحن وإرسالها إلى إقريطش ، ثم أحرقوا أشرعة السفن المكدسة فى المخازن البحرية بدمياط وقبضوا على ستين شخصا حملوهم أسرى .

وبعد أن قضى اسطول الروم يومين فى حصار دمياط ونهبها أقلع فى ٢٤ مايو محملا بالغنائم ، وسار شرقا لمهاجمة تنيس ، وهى جزيرة فى بحيرة المنزلة التى تقع بين الفرما ودمياط . ولكن التيار أفسد خطة الروم الذين تخلوا عن متابعة السير نحوها خشية أن تجنح سفنهم إلى الرمال . ومن ثم اتجهوا إلى أشتوم التى لا تبعد كثيرا عن تنيس ، وكانت مركزاً حصيناً له سور به أبواب حديدية . فاقتحم الروم ذلك الحصن وأحرقوا ما كان به من الآلات الحربية ، ثم اقتلعوا الأبواب الحديدية وأبحروا إلى بلادهم قبل أن تصل الإمدادات إلى مدينة دمياط من داخل البلاد[2] .

وقد ترتب على تلك الإغارة المخربة الواسعة النطاق اهتمام السلطات المصرية بتدعيم قواعدها البحرية وتقوية الأسطول فيها . واتجهت عناية

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ص ٤٨ .

(٢) نفس المرجع السالف ، ص ٤٨ .

المصريين إلى الأسطول خاصة ، وأقبلوا على العمل به ، وغدا البحارة موضع التقدير والرعاية . فيروى المقريزى أنه : « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر ، وأنشئت الشوانى برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو . وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب . »[1]

ولم تلبث الأحداث فى مصر أن ساعدت على تقوية هذا الاتجاه البحرى الذى ظهر فى عهد ولاية عنبسة بن اسحق . ذلك أن الأحوال السياسية فى مصر دخلت بعد انتهاء حكم ذلك الوالى سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م فى دور من الانفصال عن السلطة المركزية فى بغداد ، وقيام ولاة مستقلين بشئون مصر ولا يعترفون بسلطان الخلافة العباسية إلا إسميا . وكان أول أولئك الولاة الجدد هو أحمد بن طولون الذى ولى شئون مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م .

وبادر هذا الوالى الجديد بتدعيم قوته الحربية ليدفع عن نفسه محاولات الخلافة العباسية لاسترداد نفوذها المطلق فى مصر ، ومن ثم اتجه أحمد بن طولون فى سبيل بناء قوته إلى الاهتمام بشئون الأسطول فى مصر ، لأنه أحد أركان قوة البلاد ... للدفاع عنها ... دور الصناعة التى تصنع بها السفن ، ودب النشاط فى القواعد البحرية المصرية بدمياط والاسكندرية وغيرها ، وصارت حافلة بالوحدات البحرية . وذكر

(١) المقريزى ، المواعظ ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

المقريزى أن ابن طولون « بنى أسطولا يتألف من مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها .... من قوارب الخدمة »[1]

واهتم أحمد ابن طولون فى نفس الوقت بأمور الشام ، نتيجة سياسته الخاصة بالدفاع عن سلطانه فى مصر . ذلك أن الخلافة العباسية اتخذت من إقليم الشام وحكامه سبيلا لإعداد المؤامرات ضد أحمد بن طولون والعمل على إخراجه من مصر . ومن ثم انتهز أحمد بن طولون وفاة حاكم الشام سنة ٨٧٧ م واحتل هذا الاقليم دون أن يلقى مقاومة كبيرة ، وصارت مصر والشام مرة أخرى وحدة واحدة فى ميدان النشاط البحرى فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وكانت آية هذا النشاط البحرى الجديد اهتمام أحمد بن طولون بقواعد الشام البحرية ، التى سبق أن دب الانحلال إليها بسبب انصراف الخلافة العباسية القائمة فى بغداد عن شواطى البحر الأبيض المتوسط التابعة لها . فجدد حصون وأسوار عكا[2] وغيرها من موانى الشام ، وصارت وحدات أسطوله تجد لها فى تلك الموانى قواعد بحرية للدفاع والزود عن سلطان أسرته فى مصر ، والمساهمة كذلك فى النشاط البحرى الذى اضطلع به إذ ذاك أسطول إقريطش .

وبدأ الأسطول المصرى نشاطه من قواعده بالشام ، وهجم على جزر بحر إيجة التى تجمعت بها أساطيل الروم ، وكذلك مدن اليونان البحرية التى دأبت سفن الروم على الاحتماء بها إذا ما اضطرت إلى الفرار . ولم تلبث الخلافة العباسية أن لجأت إلى أحمد بن طولون برغم كراهيتها له ، ليدافع عن حدود

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .
(٢) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٦٣ .

بلادها المجاورة للروم . فأضاف الخليفة العباسى إلى ولاية أحمد بن طولون إمارة منطقة العواصم والثغور التى تضم المنافذ والممرات التى تصل بين شمال الشام وآسيا الصغرى ليمنع هجمات الروم على شمال العراق[1].

واستفاد أحمد بن طولون كثيراً من هذا التطور فى علاقات الخلافة العباسية معه ، ورأى فى ذلك فرصة للاعلاء من شأن أسطـــوله الحربى فى قواعد الشام ، إذ نقل بعض وحدات ذلك الأسطول إلى طرسوس فى أقصى الشمال ، وجعلها قاعدة حربية تخرج منها السفن لشد أزر القوات البرية التى تهاجم معاقل الروم فى آسيا الصغرى[2] . وآتت سياسة أحمد ابن طولون البحرية ثمارها حين اضطر إمبراطور الروم إلى مهادنته ، حيث أرسل له سنة ٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م وفداً يطلب عقد الصلح بين الدولتين ، كما جاء مع وفد الروم أحد حكام منطقة الثغور العرب ، ممن وقع أسيراً فى أيدى الروم ، عفواً على رغبة الأمبراطور فى كسب ود أحمد بن طولون[3].

غير أن تلك العلاقات الودية لم تدم طويلا بين أحمد بن طولون والروم ، واستأنف الفريقان الإغارة على بلد كل منهما . وكانت قاعدة طرسوس ذات أهمية كبرى فى أحداث الصراع ، ذلك أن قربها من شواطىء آسيا الصغرى ساعد الأسطول العربى على الإغارة على قواعد الروم البحرية بها ونشر الفوضى فى أرجائها . ومن ذلك أن أمير طرسوس شن سنة ٨٨١ م غارة بحرية على جنوب آسيا الصغرى ، وتوغل فى بحر إيجه حتى اقترب من الدردنيل[4].

(١) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ١١٠ .
(٢) نفس المرجع السالف ، ج ٧ ، ص ١١٧ .
(٣) نفس المرجع السالف ، ص ١١٧ .
(٤) نفس المرجع السالف ، ص ١٢١ ؛ Runciman, op. cit. 123.

وانتهز الأسطول العربى بإقريطش ذلك النشاط الذى قام به الأسطول الطولونى ، وقامت إحدى وحداته وتتكون من سبع عشرة سفينة ، فضلا عن عدد صغير آخر من المراكب بهجوم بحرى خاطف على البسفور[1] . على أن التعاون البحرى بين أسطول ابن طولون وأسطول إقريطش ظل يفتقر إلى التنسيق والتنظيم ، وإنما جرت أحداث كل من الأسطولين على نحو أشبه بنشاط أساطيل الأندلس وبلاد المغرب فى غـــرب البحر الأبيض المتوسط .

وعندما توفى أحمد بن طولون ترك لابنه أسطولا بلغت جميع سفنه الصغيرة والكبيرة وكذلك التجارية منها نحو ألف قطعة[2] . واستطاع أسطول الطولونيين برغم المتاعب العديدة التى صادفتها الأسرة فى الداخل أن يحد من شوكة إغارات الروم البحرية التى أخذت تزداد حدة بسبب ضعف خلافة العباسية إذ ذاك فى بغداد . ومن ذلك أن أحد أمراء البحار الروم ويدعى هيمريوس (Himerius) دأب على قطع أسباب الاتصال بين أسطول طرسوس وإقريطش ، وبث الرعب فى مدن الشام الساحلية .

وكانت مدينة سالونيكا ببلاد اليونان قاعدة أعمال أسطول الروم ، لأنها تمتعت بموقع جغرافى فريد ، جعلها فى مأمن من حركات الأساطيل العربية . وفضلا عن ذلك كان لتلك القاعدة ميناء كبير يتسع لعدد عظيم من السفن ومجهز بأحسن الوسائل لإمدادها بالقوات المحاربة . وبهذا استطاع أمير البحر على أسطول الروم استغلال تلك القاعدة الآمنة لتحقيق خطته فى شل التعاون بين سفن إقريطش والأسطول الطولونى .

(١) Finaly, op. cit. II, 250
(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٤٠ .

ولكن فى سنة ٩٠٤م قامت حملة بحرية تتألف من أساطيل الشام ومصر وإقريطش بمفاجأة قاعدة الروم الحصينة فى سالونيكا . وكان لبحارة الأسطول المصرى أكبر الأثر فى إقتحام معاقل قاعدة الروم . ذلك أن أسوار سالونيكا البحرية كانت عالية ومزودة بكافة آلات الحرب من المجانيق القوية وغيرها من الأسلحة التى تقذف النار البحرية ، ولكن السفن المصرية استطاعت الاقتراب من أسوار سالونيكا ، وهيأت لبحارتها فرصة تسلق تلك الأسوار ، ثم الاندفاع داخل المدينة وفتح أبوابها لسفن الأساطيل الأخرى .

ووقعت حاميه سالونيكا أسيرة الأساطيل العربية ، وفقدت عدداً كبيراً من رجالها . وظلت بحارة تلك الأساطيل عشرة أيام فى المدينة يدمرون استعداداتها الحربية وما بها من معدات بحرية ، حتى جعلوها عاجزة عن أن تمد أسطول الروم بما يحتاجه من عتاد . وعادت بعد ذلك الأساطيل مجتمعة إلى إقريطش حيث اقتسمت الغنائم ، ثم رجعت أساطيل الشام ومصر المؤتلفة إلى قواعدها بطرسوس والاسكندرية (١)

غير أن النشاط البحرى العربى فى شرق البحر الأبيض المتوسط لم يلبث أن وقف فجأة ، ولكن لفترة قصيرة بسبب تجدد الصراع بين الخلافة العباسية والبيت الطولونى على الاستيلاء على مصر . وجلب هذا التنافس أضرار بالغة على قواعد الأسطول المصرى ، لأن الخلافة العباسية لجأت إلى أساليب الدس ، والاستعانة ببعض ولاة مدن الشام لتمزيق ممتلكات الطولونيين بالشام ، وانتهى الأمر بأن نجحت الخلافة العباسية فى الإطاحة

(١) Finlay, op. cit, II, 268. 270.

بأسرة الطولونيين ، التى لم تعمر غير سبعة وثلاثين عاماً ، أسهمت فيها - برغم قصرها فى حياة الدول - فى نشاط الأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط .

ومما زاد الحالة سوءاً بالنسبة للأسطول العربى فى شرق البحر الأبيض المتوسط أن الخلافة العباسية لم تستطع تدعيم أقدامها فى مصر ، إذ عمد أحد ولاتها وهو محمد بن طغج الأخشيد إلى الإنفصال عن السلطة المركزية فى بغداد ، كما فعل ذلك من قبل أحمد بن طولون ، وأسس لنفسه أسرة عرفت بالدولة الأخشيدية فى مصر ، من سنة ٣٢٣ – ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ – ٩٦٩ م .

وقد حاولت الدولة الإخشيدية السير على نهج أسرة الطولونيين فى تقوية الأسطول المصرى وتدعيم قواعده ، والاهتمام بتأسيس دور الصناعات لبناء السفن الحربية . ولكن بمجهودات تلك الأسرة الإخشيدية عجزت عن بعث النشاط البحرى العربى فى شرق البحر الأبيض المتوسط بسبب ضياع قوة حكامها فى الدفاع عن مصالحهم الخاصة ضد أطماع الخلافة العباسية . ثم انتهى الأمر بزوال تلك الأسرة سريعاً دون أن تعمر طويلا ، وظلت حركات الأسطول العربى فى مياه ذلك الشطر من البحر الأبيض المتوسط راكدة حتى قيام الدولة الفاطمية بمصر .

الاسطول الفاطمى

ا — فى غرب البحر الأبيض المتوسط :

مثلما بعث مهاجرو الأندلس بإقريطش النشاط مرة أخرى فى البحرية العربية بشرق البحر الأبيض المتوسط ، فإن قوة بحرية من أهل المغرب بعثت بانتقالها إلى مصر الحياه ثانية فى الأساطيل العربية بذلك الشطر الهام من البحر الأبيض المتوسط ، وبددت بما حملته معها من فترة الركود الذى خيم على النشاط البحرى العربى عقب زوال الأسرة الطولونية . وكانت تلك القوة البحرية الجديدة هى دولة الفاطميين ، التى تأسست بشمال أفريقيا على أنقاض أسرة الأغالبة سنة ٢٩٦ ﻫ / ٩٠٩ م .

ويمثل سلطان الفاطميين بشمال أفريقيا ، ثم اتساعه إلى مصر والشام ، قمة المجد البحرى العربى ، وعصر سيادة الأساطيل العربية للبحر الأبيض المتوسط . واستطاعت دولة الفاطميين أن تتبوأ تلك المكانة العالية فى تاريخ البحرية العربية بسبب نشأتها وترعرعها فى بيئة بحرية خالصة ، شاهدت منذ أقدم العصور أقوى الأساطيل وأشهر أمراء البحار الذين عرفهم التاريخ . ويرجع تأسيس تلك الدولة إلى دعاة الشيعة الذين فروا من بطش العباسيين فى العراق إلى شمال أفريقيا ذات الصلة الوثيقة بالبحر الأبيض المتوسط ، واتخاذها ميدانا لجهادهم من أجل بناء سلطان سياسى ينافس خلافة العباسيين في بغداد.

واستطاع أحد دعاة الشيعة وهو أبو عبدالله استمالة قلوب أهالى شمال أفريقيا إلى دعوته ، وكون منهم جيشاً هجم به على رقادة عاصمة دولة الأغالبة ، التابعة إسميا للعباسيين . وفى سنة ٢٩٦ ﻫ / ٩٠٩ م استولى ذلك الداعى الشيعى

على عاصمة الأغالبة ، التى شيد حكامها أقوى الأساطيل فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وفى نفس العام نادى أبو عبدالله الشيعى بأحد سلالة على ابن أبى طالب من زوجته فاطمة — وهو عبيدالله المهدى — خليفة ، معلنا بذلك قيام أسرة حاكمة جديدة ، اتخذت لنفسها اسم الدولة الفاطمية ، نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم .

وقد ورث عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بشمال أفريقيا ، تركة بحرية هائلة ، [illegible] على تنميتها . ذلك أن الأغالبة خلفوا له قواعد عديدة وأساطيل كبيرة فى تونس وصقلية وقوصرة تتطلب تنظيمها وتدعيمها [illegible] إبان انهيار سلطان سادتها القدامى . واستهل عبيدالله المهدى سياسته البحرية ببناء قاعدة بحرية جديدة فى تونس ، اتخذها عاصمة له ، وأطلق عليها اسمه حيث عرفت بالمهدية[1] ، على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان .

وفى نفس الوقت اهتم عبيد الله المهدى بجزيرة صقلية وتدعيم سلطانه فيها ، إذ رأى فى الاحتفاظ بها سبيلا لتحقيق مشاريعه فى إنشاء امبراطورية عظيمة فى البحر الأبيض المتوسط ، لأنها فضلا عن صلاحيتها كقاعدة لأسطول كبير بها أراض زراعية تنتج التفاح والبندق والجوز والقسطل ، فضلا عما بها من كنوز طبيعية مثل الذهب والفضة وغيرها من النحاس والرصاص ، وهى أمور تشجع على الاستقرار بها والاستفادة مما فيها . وبذلك وجد الفاطميون فى حيازتهم بشمال أفريقيا وصقلية موارد ساعدتهم على بناء أسطول قوى ، يحقق لهم تنفيذ مشاريعهم البحرية .

---

(١) البكرى ، نفس المرجع ، ص ٣٠ .

واستهل الأسطول الفاطمى الوليد نشاطه المبكر فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى بتدعيم ملك الفاطميين بشمال أفريقيا وبسط سيطرتهم على ما جاورهم من الجهات الساحلية التى دأب أهلها على الشغب والثورات . وقد واجه الأسطول الفاطمى أثناء تحقيق المهمة السالفة أسطول الأندلس ، ومحاولاته المتكررة للاغارة على ممتلكات الفاطميين بشمال أفريقيا . ذلك أن إماره الأمويين بالأندلس أزعجها قيام سلطات الفاطميين على [illegible] من ديارهم ، كما ارتابت فى نوايا الفاطميين التوسعية .

وبدأت السلطات الأموية [illegible] بالفاطميين [illegible] على القواعد البحرية الهامة مثل [illegible] طنجة [illegible] و[illegible] على الثورة ضد الفاطميين . ثم أراد الأمويون [illegible] قوة الفاطميين [illegible] ٩٥٤ م حيث أرسلوا إحدى [illegible] مقربة من صقلية . ويبدو أن تلك السفينة [illegible] وتحمل رسالة من سلطات الفاطميين [illegible] قوة الأندلسيين البحرية أن تعرض تلك السفينة الفاطمية [illegible] من متاع[1] .

ورأت سلطات الفاطميين فى تلك الحادثة وسيلة لإظهار [illegible] البحرية وإلقاء الرعب فى نفوس الأمويين [illegible] أخرى من شواطئها بشمال أفريقيا [illegible] على صقلية بأسطول بحرى [illegible] بمظاهرة بحرية مفاجئة على [illegible] الفاطميين فى تلك المرحلة المبكرة من نشاطها البحرى أن تصل إلى مدينة

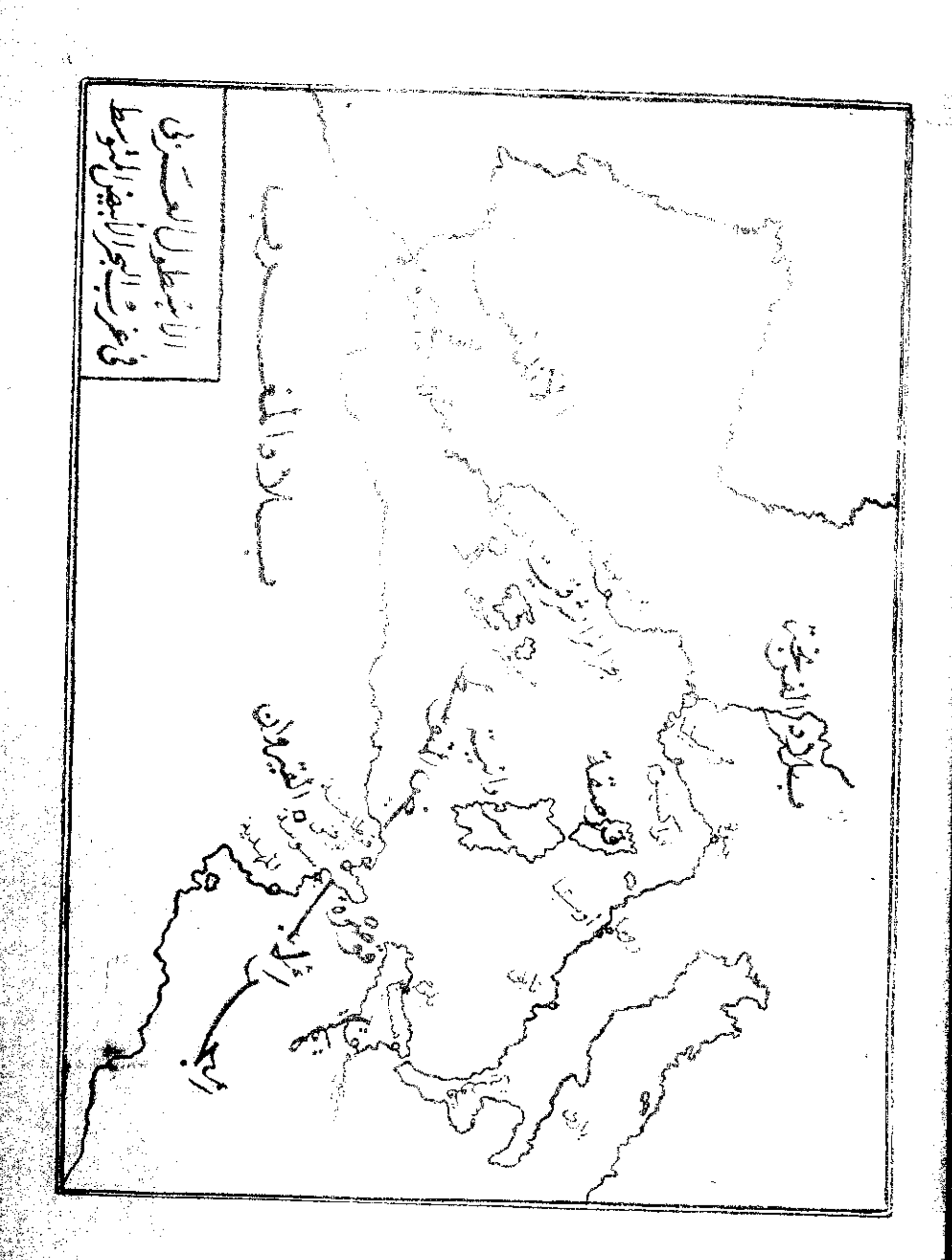
(١) النعمان ، المجالس والمسايرات [illegible]

« المرية » القاعدة الرئيسية لأسطول الأندلس . ثم نزل بحارة الفاطميين وجندهم إلى هذا الميناء وأحرقوا جميع ما به من المراكب والعتاد ، ثم عادوا إلى قواعدهم بصقلية[1] .

واتجه الفاطميون بعد ذلك إلى إخماد فتن وثورات ولاة المدن بشمال أفريقيا ، ممن دخلوا فى الولاء للأمويين بالأندلس ، حتى يجنبوا قواعدهم البحرية هجمات الأسطول الأندلسى . وتم للفاطميين بسط سلطانهم على سائر جهات المغرب بفضل سلسلة من القادة الموهوبين من أمثال جوهر الصقلى ومساعدة أسطولهم القوى لتلك الفتوحات . وكان من حسن حظ العرب أن الفاطميين انتهوا من مهمة تدعيم سلطانهم سريعا ، ذلك أن الروم انتهزوا فرصة انشغال القوات الفاطمية بالفتوح فى شمال أفريقيا وعمدوا إلى استرداد سلطانهم فى صقلية .

وكانت هجمات الروم سريعة وإغاراتهم البحرية متوالية ، فاستولوا على [illegible] من القواعد الكبرى للأسطول العربى ، كما سيطروا على سائر القواعد العربية الأخرى على سواحل قلورية بجنوب إيطاليا . وبلغ نشاط الروم أشده فى عهد إمبراطورهم نقفور فوقاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ، الذى كرس جهوده ضد نشاط العرب البحرى عامة سواء فى شرق البحر الأبيض المتوسط أو فى غربه . فأعد ذلك الامبراطور أسطولا ضخما ملأه بالمؤن والذخيرة ، واختار له نفرا من مشاهير القادة يرأسهم أحد أقربائه ويدعى [illegible] ، وبلغ عدد القوات التى حملها ذلك الأسطول نحو خمسين ألف رجل مجهزين بالأسلحة التامة والعتاد .

(١) [illegible]



ولما علم والى صقلية بأنباء تلك الحملة البحرية الهائلة التى أعدها الروم أرسل إلى السلطات الفاطمية بتونس يطلب منها المدد البحرى . وكان الخليفة الفاطمى هو المعز لدين الله ، الذى انتهى قواده إذ ذاك من إخضاع شمال أفريقيا لسلطان الفاطميين . ومن ثم استطاع المعز أن يعد أسطولا كبيراً على عجل لتعزيز الأسطول الراسى فى صقلية ، حيث وصلها سنة ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م ، وذلك قبل وصول أسطول الروم .

غير أن قوات الروم استطاعت بسبب كثرتها الاستيلاء على مسينا وطبرمين وعمدت إلى عرقلة التعاون بين القوات البحرية للعرب فى صقلية . ولكن خطة البحرية العربية اتجهت إلى قطع خطوط تموين الروم وحمل قواتها على الإنسحاب من داخل الجزيرة . ولذا تجل الروم بالتقهقر دون نظام ، وأخلوا مسينا ، آخر قاعدة لهم بصقلية . ولكن والى صقلية طاردهم ، واشتبك معهم فى وقعة بحرية تعرف بمعركة « المجاز » ، أظهر فيها بحارة الأسطول الفاطمى شجاعة فائقة . إذ ألقى جماعة منهم بأنفسهم فى الماء وأحرقوا كثيراً من مراكب الروم وأغرقتها . وأسفرت نتائج القتال عن خسارة كبرى للروم ، وفقد نفر من كبار قادتهم حيث وقعوا أسرى ، وأرسلوا إلى سجن المهدية بافريقية(١) .

وبذلك صار أسطول الفاطميين سيد البحر الأبيض المتوسط الغربى ، حيث لجأ الأمويون والروم فى تلك الجهات إلى سياسة الدفاع عن أنفسهم وتجنب كل عمل من شأنه الاصطدام مع تلك القوة البحرية الهائلة . واستطاع الفاطميون بذلك أن يتطلعوا نتيجة انتصاراتهم البحرية السالفة إلى تحقيق

---

(١) ابن الأثير ، نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

حلمهم القديم الخاص ببناء إمبراطورية لهم فى البحر الأبيض المتوسط ، وانتزاع زعامة العالم الإسلامى من الخلافة العباسية ذات العداء التقليدى لهم.

ب — فى شرق البحر الأبيض المتوسط :

جذبت انتصارات الأسطول الفاطمى فى غرب البحر الأبيض المتوسط أنظار القوى العربية فى شرقى هذا البحر إلى قوة الفاطميين تطلب معونتها ومساعدتها . ذلك أن الخــــلافة العباسية قد بلغت فى تلك الفترة درجة من الضعف الداخلى جعلها لا تستطيع الدفاع عن أراضيها والبلاد التابعة لها . وكان عرب إقريطش أول من تخلى عن العباسيين والتجأ إلى الفاطميين يستنجد [illegible] مرة أخرى إلى السيطرة على تلك الجزيرة .

[illegible] إقريطش عنواناً على مبلغ الركود الذى حل [illegible] البحر الأبيض المتوسط ، وضرورة الالتجاء [illegible] الأساطيل للزود عن كيان العرب . ذلك أن [illegible] لم تكن إلا جزءاً من خطة بحرية كبرى [illegible] من قواعدهم فى البحر الأبيض المتوسط ، وكسر شوكة أساطيلهم فى تلك القواعد .

[illegible] الخلافة العباسية وأخذوا ينظمون شئونهم البحرية بما يحقق لهم السيادة على البحر الأبيض المتوسط . وجاءت إفاقة الروم لهذا البحر فى وقت تولى فيه شئونهم الأسرة المقدونية التى عرفت بتقديرها للقوة البحرية وحرصها على بناء الأساطيل . وكانت تلك الأسرة المقدونية خبيرة بانتقاء القادة الحربيين القادرين على انقاذ الدولة وإعلاء شأنها ، فضلا عن خبرتها بالشئون البحرية [illegible] شئون تلك الأسرة إبان ضعف الخلافة العباسية

اثنان من الأباطرة الذين ارتبطت بسيرتهما وحياتهما صحوة الروم البحرية ونشاط أساطيلهم ، وهما الأمبراطور ليو السادس (٨٧٠—٨٨٦ م) والأمبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩—٩٦٣ م) .

وكانت آية صحوة الروم بناء أسطول قوى على عهد ليو السادس ، وتنظيم القواعد البحرية كذلك على شواطىء بحر إيجة التابعة للروم فى آسيا الصغرى وشواطىء اليونان(١) . ولم يعد ينتظر الروم غير القادة الحربيين الأكفاء ، الذين ظهروا فعلا على عهد الأمبراطور رومانوس الثانى ، وكان من أعظمهم نقفور فوقاس ، الذى اغتصب العرش لنفسه فيما بعد ، والذى حارب الأسطول الفاطمى فى جزيرة صقلية .

واكتسب القائد نقفور شهرته بحسن تدبيره لقوة الروم البحرية ، وتوجيهها ضد معاقل الأسطول العربى فى إقريطش وسواحل الشام . وفى الفترة التى كان فيها أسطول الفاطميين زمن الخليفة المعز يدافع عن شواطىء شمال أفريقيا ضد إغارات الأمويين الأندلسيين عليها أخذت قوة الروم البحرية تهدد جزيرة إقريطش . وأمام ضعف الخلافة العباسية بعث أهالى إقريطش إلى المعز يسألونه النجدة ضد تهديدات الروم . وتحدث رسول إقريطش إلى الخليفة المعز عن الوضع البحرى للعرب فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأخبروه أن ضياع جزيرتهم يؤدى إلى ازدياد قوة الروم البحرية ، واستطاعتها السيطرة بعد ذلك على قواعد الأسطول العربى فى الشام ومصر . ثم أوضح رسول إقريطش كذلك أن مجىء الأسطول الفاطمى إليهم يتيح

Vasiliev, L'Empir Byzantin I, 407 ; Runciman, Romanus (١) Lecapenas, 123.

له قاعدة قريبة من القسطنطينية عاصمة الروم أنفسهم ، ومركزاً يهيء للفاطميين السيادة البحرية التامة .

ويبدو أن الخليفة المعز كان على علم تام [illegible] البحر الأبيض المتوسط وقوة الروم به ، على الرغم من مشاغله فى شمال أفريقيا التى تتطلب الاحتفاظ بقوته البحرية فى تلك الجهات ، ذلك أن [illegible] أهالى إقريطش لعدم استنجادهم به منذ عهد مبكر ، وبقائهم ما [illegible] حتى أبادت قوة الروم ، ولم يستطع إلا وعدهم بالمساعدة فى أول وقت الإمكان من الزمان »(١)

وفى نفس الوقت اتصل المعز بالأخشيديين فى مصر يطلب منهم إعداد أسطول يسير مع سفن الفاطميين لنجدة أهل إقريطش . وكانت الدولة الإخشيدية تدين إسميا بالتبعية للخلافة العباسية ، مما جعل المعز يبين لكافور الذى آلت إليه الوصاية إذ ذاك على أولاد الإخشيد ، أنه لا يستهدف إلا نصرة رجال إقريطش . وأن أسطول مصر سيقف على قدم المساواة مع أسطول الفاطميين ، فجاء فى خطاب المعز إلى كافور :

« ولا نخشى على مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وميثاقه أنا لا نكون معهم إلا بسبيل خير ، وإنا نحاملهم على رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما أفاء الله علينا ، ونقسمهم بذلك ونعيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا ، حتى يفتح الله علينا إن شاء الله ، ثم ينصرفوا إليك »(٢)

وكانت الخطة الفاطمية تقضى بأن يرسل الأخشيديون أسطولهم إلى إحدى القواعد الفاطمية بإقليم برقة ، وتبحر القوات المتحدة معا من هناك

(١) النعمان ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ .
(٢) نفس المرجع السالف ، ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

إلى إقريطش . ولكن الدولة الإخشيدية كانت بدورها تعانى إنحلالا شديداً لا يقل عن التدهور الذى حل بالخلافة العباسية ، ولم تستطع إلا التظاهر بإنزال عدة سفن إلى البحر . ولذا لم يكن أمام المعز إلا مخاطبة الروم ، مهددا إياهم بالحرب إذا هاجموا إقريطش ، ذاكراً أن له حق الدفاع عنها .

ولكن الروم لم يعبأوا بهذا التهديد ، ولا سيما أن المعز لم يتخذ فعلا أية خطوات لمساعدة إقريطش ، بسبب مشاكله الداخلية . وفضلا عن ذلك فإن القائد نقفور فوقاس لم يكن قد جرب قوته بعد مع الأسطول الفاطمى ، وانتهز عزلة إقريطش وصمم على مهاجمتها سنة ٩٦٠ م . واستطاع أسطول الروم عزل شواطىء الشام ولا سيما قاعدة طرطوس وكذلك شواطىء مصر تماما حتى لا يتسرب منها [illegible] إقريطش [illegible] أخرى من سفن الروم [illegible] الفاطميين[1] . وهجم نقفور [illegible] حصاراً شديداً [illegible] فى شهر مايو سنة [illegible] سلمت سريعا [illegible]

ولكن نشاط [illegible] المتوسط بالأسطول [illegible] الخلافة العباسية [illegible] وبسط نفوذ الفاطميين [illegible]

---

(1) [illegible] Phocas.65.

(2) [illegible]

قائده جوهر الصقلى بمساعدة الأسطول الفاطمى الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م .

ولم يلبث المعز أن صمم على اتخاذ القطر المصرى قاعدة لامبراطورية الفاطميين فى شرق البحر الأبيض المتوسط بسبب ما تتمتع به تلك البلاد من موقع استراتيجى عظيم . وفى سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م انتقل المعز إلى القاهرة التى أسسها له قائده جوهر الصقلى ، وغدت تلك العاصمة الجديدة رمز القوة الفتية التى انتقلت إلى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وترتب على انتقال عاصمة الدولة الفاطمية إلى القاهرة تجدد نشاط الأسطول العربى فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وصد تيار سفن الروم التى انتقلت من فتح إقريطش إلى الإغارة على سواحل الشام . واستهل المعز سياسته فى مصر [illegible] الصناعة فيها وإنشاء أخرى جديدة كان أهمها دار صناعة [illegible] القاهرة . وقد وصف أحد المؤرخين [illegible] قائلا : وإنه لم ير مثلها فيما تقدم كبرا [illegible]

[illegible] فتح الشام وإيقاف [illegible] مصر قبل أن تستقر دعائمه ، [illegible] مصر عناصر الشيعة المعادية [illegible] جوهر الصقلى على الشام ، ونشر الاضطراب [illegible] ولكن انتقال المعز إلى مصر وتقويته للأسطول بما كفل له القضاء على هذا الخطر وإرسال الإمدادات سريعاً إلى جنده بالشام .

وجاء اهتمام الفاطميين بالشام وتدعيم قواعد أسطولهم على سواحله خيراً للدولة الاسلامية عامة ولكيان العرب فى شرق البحر الأبيض المتوسط خاصة . ذلك أن الروم تمادوا فى استهتارهم بالخلافة العباسية ، ولا سيما بعد استيلائهم على إقريطش . إذ خلف نقفور فوقاس ، [illegible] ، إمبراطور آخر مغتصب للعرش يسمى حنا شمشيق ، الذى أراد أن يدعم مركزه بدوره بالهجوم على إقليم الشام ، وانتزاع بيت المقدس من التبعية للمسلمين . وفى سنة ٩٧٥ م اندفع امبراطور الروم إلى حمص لتحقيق مشروعه الحربى ، واستولى على كثير من مدن الشام ولا سيما الساحلية مثل بيروت وصيدا . ولكنه لم يلبث أن تخلى عن مشروعه فجأة بسبب قوة الفاطميين البحرية . إذ عند طرابلس تلقت قوات الروم هزيمة على يد حامية المدينة التى تشد من أزرها الأسطول الفاطمى(١) . وبذلك عاد الإمبراطور إلى القسطنطينية فاشلا بسبب قوة البحرية الفاطمية .

وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تسترد سلطانها على قواعد الشام البحرية وتطارد الروم من أطراف الشام الشمالية . ودأب العزيز ثانى الخلفاء الفاطميين بالقاهرة على إمداد قواته فى الشام بالأساطيل الحربية لحمايتها وتدعيم فتوحاتها . وقد لجأ الروم إلى بعض أساليب الغدر لعرقلة استعدادات الفاطميين البحرية . ومن ذلك أن الخليفة العزيز أمر سنة ٩٩٦ م بإعداد أسطول عظيم فى دار صناعة المقس للهجوم على قواعد الروم المجاورة للشام . ولكن ما كادت دار الصناعة تفرغ من بناء السفن حتى شبت فيها النار وأحرقت غالبيتها .

واتهمت السلطات الفاطمية تجار الروم وعملائهم من مدينة « أمالفى »

(1) Vasiliev, op. cit. 410, 411. Brehier, op. cit. 206.

بتدبير هذا الحادث ، ولا سيما أنهم كانوا يقيمون فى إحدى الفنادق المجاورة لدار الصناعة . واعترف الروم بجرمهم ، وغادروا البلاد مطرودين . ولكن استعدادات الفاطميين البحرية كانت من القوة [illegible] بحيث لم تتأثر بهذا الحادث الطارئ ، [illegible] سائر أنحاء البلاد ، وبناء أسطول آخر(١) [illegible] الروم [illegible] العزيز ، وأوفدوا رسلهم [illegible] على تمتع الدولة الفاطمية بمركز الصدارة فى العالم الإسلامى [illegible] الخلافة العباسية ، ذلك أن الروم قبلوا [illegible] القسطنطينية فى خطبة الجمعة بدلا من الخليفة العباسى .

ولم يعمل الفاطميون [illegible] لإقرار السلام معهم ، ذلك أن الفاطميين [illegible] وأن الواجب يقضى بتدعيم [illegible] الفاطميين حين لجأ امبراطور الروم [illegible]) ، إلى تشجيع ولاة صور وطرابلس [illegible] عصا الطاعة على الفاطميين . ولكن أسطول الفاطميين [illegible] المتمردين ، وأنزل بها هزيمة فادحة(٢) .

وبذلك خابت جهود الروم البحرية فى شرق البحر الأبيض المتوسط بسبب انتقال الأسطول الفاطمى إلى مصر ، واتخاذ الفاطميين القاهرة حاضرة لدولتهم . إذ صارت مصر والشام وحدة بحرية ، ذات قواعد حافلة بالسفن

(١) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

الحربية ، التى كفلت للعرب السيادة على الشطر الشرقى من البحر الأبيض المتوسط فى فترة كانت فيها الخلافة العباسية تعانى أشد أدوار الضعف والانحلال .

وقد أشاد المؤرخون العرب بذلك النشاط البحرى الذى خلقه الفاطميون فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وما ترتب عليه من نتائج باهرة فى الدفاع عن شواطئ مصر والشام . فذكر المقريزى أنه : « لما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة اشتد أمرهم (أى الفاطميين) بأخذهم البلاد ، وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله ، وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه ، وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد ، واعتناء بالأسطول وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط وتسييرها إلى بلاد الساحل ، مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة » [1]

وقد سرد ابن خلدون فى [illegible] الأسطول [illegible] سيادته على البحر الأبيض المتوسط [illegible] النشاط البحرى للعرب [illegible] عهد الفاطميين قائلا : « [illegible]
العجم خولا لهم [illegible]
واستخدموا من [illegible]
للبحر وثقافته [illegible]
السفن فيه [illegible]
العساكر [illegible]
ممالكهم وثغورهم [illegible]
والمغرب والأندلس [illegible]

(١) المقريزى [illegible]

« ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول ابن ابراهيم بن الأغلب .. وفتح قوصرة أيضاً فى أيامه .. وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية والأندلس فى دولة العبيديين (أى الفاطميين)[1] والأمويين تتعاقب إلى بلادهما .. وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب أو نحوها وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه .

« وكان المسلمون قد غلبوا على هذا البحر (الأبيض المتوسط) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وامتطوا أظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانيه وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرس وسائر ممالك الروم والافرنج .

« وكان أبو القاسم الشيعى (خليفة فاطمى) وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة .. والمسلمون خلال ذلك كله [illegible] على [illegible] هذا البحر (الأبيض المتوسط) وصارت أساطيلهم [illegible] وعساكر الاسلامية تجيز البحر فى الأساطيل من صقلية [illegible] العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن [illegible] ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة [illegible]

(١) [illegible] كلمة العبيديين على الفاطميين [illegible]
[illegible] أبى طالب . وكلمة العبيديين نسبة الى [illegible]

العبيديين (الفاطميين) . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلها إلى الجانب الشمالي الشرقي منه ، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم [illegible] وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً [illegible] سلماً وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح[1]

(١) ابن خلدون ، المقدمة (قيادة الأساطيل) .

[illegible]

[illegible] في انتصاراته الظافرة [illegible] جودة الخدمة التي نالها كذلك . [illegible] البحر الأبيض المتوسط أن التنظيم البحري للأساطيل ، وما يتصل به من قواعد آمنة ودور صناعات كاملة وخدمة ممتازة ، هو عصب الحياة لأية قوة بحرية تبغي العزة والمجد .

واتجهت أنظار السلطات العربية أولا في الشام ومصر ، ثم في بلاد المغرب والأندلس إلى تدعيم القواعد البحرية القديمة بها ، وإنشاء أخرى جديدة تعزز من نشاط أساطيلها وتهيء لها أسباب الفوز والسلامة . وكانت لدى العرب على امتداد شواطىء البحر الأبيض المتوسط التابعة لهم قواعد بحرية علا ذكرها في التاريخ القديم ، وأسهمت بنصيب وافر في خدمة القوى العظمى التي شاهدها هذا البحر . ففي الشام قامت قواعد بحرية عديدة

مثل اللاذقية وطرابلس وصور وبيروت وعكا ، تمتعت كلها بالموقع الممتاز والحصون القوية .

وأشاد الرحالة والجغرافيون العرب الذين جابوا شواطىء البحر الأبيض المتوسط التابعة لسلطان بلادهم بعظمة تلك القواعد البحرية وضخامتها ، وبالاهتمام البالغ الذى أسبغته السلطات على تحصيناتها ومعاقلها . ومن ذلك ماروآه المقدسى[1] عن ميناء عكا ، الذى نال اهتمام الولاة والحكام الذين تداولوا عرش الشام على مر العصور والأحيان . فقد كانت عكا أول ميناء حربى خرجت منه [illegible] البحرية [illegible] القاعدة الكبرى لأسطول الشام .

ويبدو أن ميناء [illegible] بحرية ازدياد النشاط البحرى [illegible] الأعمال الحربية . فكانت [illegible] التى توجد فى عكا [illegible] كذلك . ولكن [illegible] تحصينات قوية لها ، على [illegible] البحرى عند الروم إذ ذاك .

وقد روى المقدسى [illegible] عكا ، وشرح كذلك طريقة إقامة [illegible] كان رأى

(١) المقدسى ، [illegible] والذى نال اسمه نسبة إلى بيت [illegible] الأصلى . وقد زار هذا الجغرافى كل البلاد الإسلامية عدا أسبانيا وسجستان والهند [illegible] ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م كتب خلاصة لرحلاته التى قام بها فى خلال عشرين سنة فى كتابه [illegible] فى معرفة الأقاليم [illegible] هذا الكتاب كثيرا من المعلومات القيمة [illegible] الخلافة بنفسه .

صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها ، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناع الكورة[1] ، وعرض عليهم ذلك ، فقيل لا يهتدى أحد إلى البناء فى الماء فى هذا الزمان ، ثم ذكر له جدنا (أى جد المقدسى) أبو بكر البناء ، وقيل إن كان عند أحد علم هذا فعنده . فكتب إلى صاحبه عن بيت المقدس حتى أنهضه إليه . فلما صار إليه ، وذكر له ذلك قال : هذا أمر هين ، على بفلق الجميز الغليظة ، فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البرى ، وخيط بعضها ببعض ، وجعل لها بابا من الغرب عظيمة ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت ، حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها [illegible] ثم عاد فبنى من حيث ترك ، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم [illegible] ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمراكب [illegible] السلسلة مثل صور »[2] .

[illegible] الأخرى نفس هذا الاهتمام ، ولا سيما فى العهود التى [illegible] شئون الشام . وبلغت تلك القواعد أوج عزها فى عهد الفاطميين حيث امتلأت صور وعكا وعسقلان بالسفن الحربية الكثيرة المختلفة الأنواع .

[illegible] قواعد الشام البحرية بقدرتها على استقبال عدد كبير من السفن ، فذكر اليعقوبى[3] فى أواخر القرن الثالث الهجرى أن ميناء طرابلس

(١) [illegible] القرى المجاورة لعكا .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) اليعقوبى من الجغرافيين المسلمين الذين جابوا كثيرا من بقاع الدولة الإسلامية ومن [illegible] المعلومات من المعلنات الرسمية والمصادر الموثوق بصحتها . وقد أخرج فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى مؤلفه « كتاب البلدان » ...

الشام ، عجيب يحتمل ألف مركب »[1] وأن [illegible]
تخرج مراكب السلطان لغزو الروم [illegible]

وتمتعت بعض قواعد الشام بنوع [illegible]
المجاورة لها ، هيأت لها الحصول [illegible]
المقدسى طريقة هذا الاتصال [illegible]
« كفر سلام من قرى قيسارية [illegible]
البحر يقع بها النفير ، وتقلع إليها [illegible]
أسارى المسلمين . . وقد ضج بالنفير [illegible]
منارة ذلك الرباط ، وإن كان نهاراً [illegible]
منابر شاهقة قد رتب فيها أقوام ، فتوقد [illegible]
ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر [illegible]
المنارة ، ونودى على ذلك الرباط ، وخرج الناس بالسلاح والقوة [illegible]

وبذلك وجدت الأساطيل العربية فى قواعدها بالشام الطمأنينة وكافة أسباب القوة والبأس ، فاستطاعت أن تخرج منها تباعاً للهجوم على بلاد الروم ، وإعلاء شأن العرب فى مياه البحر الأبيض المتوسط . ثم أن أقوال الجغرافيين والرحالة العرب كشفت عن منعة تلك القواعد وقوة حصونها ، وقدرتها على خدمة نشاط الأساطيل العربية ، وتلبية جميع المطالب الحربية .

(١) اليعقوبى ، كتاب البلدان ص ٣٢٧ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .
(٣) نوع من السفن ، أنظر وصفها فى الفصل السادس من هذا الكتاب .
(٤) نوع من السفن ، أنظر وصفها فى الفصل السادس من هذا الكتاب .
(٥) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

[illegible]

فى مصر
[illegible] أصبحت
[illegible]
[illegible] والتى
[illegible]
[illegible] العرب
[illegible] على

[illegible] بنسع كل
[illegible] الميناءين بسبب
وقوع [illegible] إلى حوالى ثلاثة
أميال [illegible] من تلاطم أمواج البحر [illegible] ، وقد اتصلت تلك
الجزيرة بمدينة الاسكندرية [illegible][2] ، أتاح لها مرفأ آمنا
للسفن حين تعصف الأنواء بمياه البحر

ومنذ استيلاء العرب على مصر ، والاسكندرية موضع اهتمامهم بسبب خروج أساطيلهم منها لغزو بلاد الروم ، وقد كشفت أوراق البردى ، التى ترجع إلى ولاية قرة بن شريك على مصر سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م عن الدور

(١) كانت توجد فى البقعة التى اختارها الأسكندر لإنشاء الاسكندرية قرية تدعى راكوتس وقد وقع اختياره عليها [illegible] لأنها تقع على شريط من الأرض يفصل البحر عن بحيرة مريوط ، فضلا عن ارتفاعه عن مستوى الدلتا وبعده عن رواسب فرع النيل الكانوبى الذى كان يصب بالقرب من الأسكندرية إذ ذاك .
(٢) ابراهيم نصحى ، تاريخ البطالمة ، ص ٣٢[illegible]

الهام الذى قامت به الاسكندرية فى إغارات العرب البحرية . فكان قرة بن شريك يرسل الأوامر إلى حكام المديريات لإرسال المؤونة ـ ومهرة الصناع والبحارة والجند كذلك ـ الخاصة بالأسطول الراسى بالاسكندرية[1]، ومساعدته على أداء رسالته فى الدفاع عن البلاد وشواطئها .

وقد أشاد الجغرافيون والرحالة العرب بما لقاعدة الاسكندرية من مكانة عظمى فى نشاط الأسطول العربى ، كما تحدثوا فى إطناب ومبالغة عن منارتها المشهورة . وكانت تلك المنارة قائمة زمن الفتح العربى للاسكندرية وتؤدى رسالتها فى خدمة النشاط البحرى ، واختصت المرآة التى تعلو المنارة باهتمام الرحالة والجغرافيين ، وأغرقوا فى المبالغة عنها . فقيل إن تلك المرآة كانت تستخدم فى رؤية العدو [illegible] إذا أقبل من بلاد الروم .

ومن أمثلة تلك المبالغات [illegible]
عجائب بلاد العالم المرآة [illegible]
يجرى فى القسطنطينية [illegible]
الشفاف ، يمكن أن [illegible]
مدى البصر ، وقيل كذلك [illegible]
العدو بتسليط أشعة الشمس [illegible]

---

(١) من أمثلة [illegible] العدد الثانى ، وهى من قرة [illegible] حيث قال : « لقد أرسلنا [illegible] البحارة والصناع [illegible] الاسكندرية والجند المقيم بها ، وعلى ذلك [illegible] البحارة بحالة جيدة ومن هم مهرة [illegible] Seil. der Islam [illegible]

(٢) المسعودى ، مروج [illegible]

ومهما يكن من أمر تلك المبالغات فإنها تكشف عن حقيقة ثابتة ، ألا وهى استخدام منارة الاسكندرية فى الأعمال الحربية البحرية إلى جانب مهمتها فى إرشاد السفن التجارية . ثم إنه يتضح من الروايات الأخرى التى تتصل بأخبار تلك المنارة أن الروم عمدوا إلى تخريبها ، وإبطال عمل مرآتها ليسهل عليهم مهاجمة قاعدة الاسكندرية . ومن ذلك أنه فى خلافة الوليد بن عبد الملك فى القرن الثامن الميلادى تحايل الروم لهدم المنارة ، فذهب رجل من علية قومهم ومن المقربين للامبراطور إلى الخليفة يطلب منه الحماية ، مدعياً أن سلطات الروم غاضبة عليه .

وبعد أن اطمأن اللاجىء المحتال إلى سلامته وكسب ثقة الخليفة ، ذكر أن لديه كتاباً قديماً فيه معلومات عن كنوز للفراعنة مدفونة تحت المنارة . فأرسل الخليفة مع هذا اللاجىء جماعة من الجند ليستخرجوا الكنز ، مما تطلب هدم بعض المنارة [illegible] غير أن الناس احتجوا وبعثوا يطلبون من الخليفة [illegible] التى أدت إلى تصدع المنارة . فهرب اللاجىء [illegible] . وإذا كانت تلك الرواية بدورها قد [illegible] هو أن المنارة قد أصابها الدمار منذ القرن [illegible] روايات الرحالة والجغرافيين العرب [illegible] اعتمدوا فى أخبارهم عن المنارة على الأقوال [illegible] ما بقى من آثارها .

[illegible] المنارة وتدعيم مبانيها . ومن ذلك أن أحمد بن طولون [illegible] جعل على قمتها قبة من الخشب سنة ٨٧٥ م . ولكن هذه القبة لم تبق مدة طويلة . وقد تابع خمارويه بن أحمد

---

(١) السيوطى ، [illegible] ص ٢٠ ، ٢٩

ابن طولون سياسة الاهتمام بالمنارة بسبب ازدياد النشاط البحرى للأسطول العربى فى عهده ، فجدد بعض جدارانها ، التى تهدمت بسبب أمواج البحر[1].

ولم تلبث قاعدة الاسكندرية أن بلغت أوج مجدها فى العهد الفاطمى بسبب ازدياد علاقات الفاطميين بالمغرب والأندلس وصقلية ، فضلا عن تبعية الشام لهم . فكانت الأساطيل الحربية تخرج فى ذلك الوقت من الاسكندرية قاصدة شتى أرجاء البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، لأن تلك القاعدة غدت أهم مركز حربى يتفق مع اتساع دائرة النشاط البحرى العربى إذ ذاك .

وظهر إلى جوار الاسكندرية قواعد بحرية أخرى مصرية كان لها نشاط عظيم فى ميدان البحرية العربية . ومن ذلك مدينة دمياط وتنيس والفرما ، التى لا تتمتع اليوم بنفس المكانة التى تمتعت بها فى تلك العصور الوسطى . فمدينة دمياط تبتعد اليوم عن البحر الأبيض المتوسط بنحو أربعة عشر ميلا ، ولكنها كانت فى تلك الفترة من عصر الأسطول العربى الذهبى فى العصور الوسطى قاعدة بحرية هامة . تكاد تنافس الاسكندرية فى مضمار العمليات الحربية . فكان لوقوع دمياط على شاطئ البحر المتوسط وإشرافها كذلك على مصب فرع النيل الذى يعرف باسمها (فرع دمياط) أثر كبير فى تسهيل إبحار السفن العربية الحربية من داخل البلاد إلى مياه البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن أهم دور صناعة السفن الحربية فى ذلك الوقت كانت فى جزيرة الروضة بالقرب من الفسطاط أو القاهرة ، ومنها كانت السفن تسير فى فرع دمياط ، حيث تخرج من قاعـــدة دمياط للجهاد والدفاع عن الأراضى المصريه .

(١) المقريزى ، خطط ، ج ١ ، ص ١٥٧

وكان نشاط قاعدة دمياط يتسع تبعاً لازدياد حركات الأسطول العربى فى مياه الشطر الشرقى من البحر الأبيض المتوسط . فعندما استولى العرب الأندلسيون على جزيرة إقريطش [illegible] شأن دمياط ، وصارت أهم ميناء [illegible] الجزيرة بحاجته من السفن والعتاد [illegible] دمياط للأسطول العربى [illegible] التى قام بها الروم عليها سنة ٢٣٨ هـ [illegible] دمياط [illegible] وظلت قاعدة آمنة للأسطول [illegible] بعد عودة السفن لتحميها من [illegible] الفاتحة[1].

وقام إلى [illegible] ذلك عبارة عن جزيرة وسط [illegible] القاعدة بحكم موقعها البحرى تعتمد [illegible] فى تنمية إقتصادياتها . وقد [illegible] عشر بابا مصفحة بالحديد [illegible] تنيس قائلا إنها بلغت [illegible][2].

وقد [illegible] كذلك قيادة السفن عبر [illegible] حوقل [illegible] كثيراً من البلدان بمهارة ملاحى [illegible] منها تحك إحداهما الأخرى ، هذه مصعدة وهذه نازلة بريح واحدة ، ملأة شرعها بالرياح ومتساوية فى سرعة السير[3].

(١) ، أنظر ص ١٠٥ من هذا الكتاب .
(٢) ناصرى خسرو ، سفرنامه (schefer) ص ١١
(٣) ابن حوقل صورة الأرض ص ٣٠ .

وكانت القواعد المصرية البحرية حافلة بالسفن الحربية طوال العصر الذهبي للأسطول العربي في مياه البحر الأبيض المتوسط ، ومركزاً هاماً تنطلق منه الإغارات البحرية العربية على قواعد الروم في البحر الأبيض المتوسط . وقد ظلت تلك القواعد البحرية على اتصال وثيق بقواعد الشام خلال تلك الفترة الزاهرة من تاريخ الأسطول العربي ، حتى صارت مياه الشطر الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ميداناً مصرياً شامياً تتعاون فيه أساطيلهما على إعزاز العروبة والإعلاء من شأنها .

في المغرب :

وتتضح مجهودات العرب لتدعيم قواعد أسطولهم في البحر الأبيض المتوسط ، وعدم تمسكهم بالقواعد البحرية القديمة ، بعد أن تم لهم الاستيلاء على شمال إفريقيا . فقد آثر العرب الابتعاد عن بعض تلك القواعد القديمة مثل قرطاجنة ، وأسسوا قواعد أخرى جديدة تتفق مع حاجات أسطولهم في غرب البحر الأبيض المتوسط .

واستهل تلك السياسة [illegible]
الذي يرجع إليه الفضل [illegible]
أول قوة بحرية عربية [illegible]
من تجاربه في [illegible]
الأبيض المتوسط [illegible]
في دور النشأة والنمو [illegible] الأبيض المتوسط [illegible] ذلك أن إغارات الروم البحرية [illegible] العرب في شمال إفريقيا جعلت حسان يفكر في ضرورة [illegible] قاعدة لأسطوله تمكنه [illegible] من هجمات

الروم ، وتستطيع فيما بعد أن تساعد السفن الحربية العربية على صد إغارات الروم وأساطيلهم .

ووجد حسان ضالته في مكان جنوبي قرطاجنة ، إذ يقع خلف الساحل بحيرة داخلية تسمى آدس (Ades) ، لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير . وعلى تلك البحيرة توجد مدينة لها ميناء ترسو به بعض السفن . ووجد حسان بغيته في تلك المدينة ، ومن ثم أمر بحفر البرزخ الذي يفصل البحيرة عن البحر ، وكذلك بحفر قناة أخرى في مياه البحيرة حتى تستطيع السفن السير من البحر مباشرة إلى الميناء الداخلي ، الذي عرف منذئذ باسم تونس ، وغدا قاعدة آمنة للسفن الحربية العربية[1] .

وأثبتت الأحداث حسن اختيار حسان لقاعدة تونس ، إذ كفل لها ابتعادها عن البحر فرصة تستطيع فيها الحاميات العربية مقاومة أساطيل الروم قبل وصولها الميناء الجديد ، كما أن مياه البحيرة الهادئة هيأت للسفن العربية [illegible] البحر وأنوائه . ولم يكتف حسان بتأسيس قاعدة تونس [illegible] لها دار صناعة ، تمدها بالسفن الحربية وتجعلها [illegible] قاعدة دفاعية فقط . فقد أرسل هذا القائد العربي [illegible] طلب منه أن يوفد إلى تونس جماعة [illegible] لينشئوا له دار صناعة هناك .
[illegible] مروان ، والي مصر إذ ذاك ، [illegible] وأن يعدهم أحسن إعداد .

[1] [illegible] الأسطول [illegible] والبيزنطيون ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

بما يكفل لهم الراحة طيلة السفر والوصول آمنين سالمين[1] . وتعتبر تلك السياسة العربية عنواناً على التضامن البحرى الذى ساد سائر الأقاليم العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، وبداية الحد للأسطول العربى فى بلاد المغرب . ذلك أن المصريين بادروا إلى إنشاء دار الصناعة ، فى تونس عقب وصولهم ، وحسان بن النعمان مقيم بها . وكان البربر من سكان البلاد الأصليين يقطعون الأخشاب من سفوح الجبال [illegible] تونس حيث يتولى الصناع المصريون بناء السفن .

وبذلك اتسع نشاط قاعدة تونس [illegible] هاماً للأسطول العربى فى غرب البحر الأبيض [illegible] تلك القاعدة الجديدة ، بأساطيلها وبحارتها فى [illegible] أنحاء البحر الأبيض المتوسط . فبعثت [illegible] العربى وهو على حصاره للقسطنطينية ، على حين [illegible] لطرد أسطول الروم من قواعده المجاورة لبلاد المغرب .

وزادت أهمية تونس عند ما اتجه الأغالبة إلى فتح جزيرة صقلية ، إذ قامت تلك القاعدة بخدمات جليلة ، وساعدت على الاستيلاء على هذا المعقل الهام من معاقل البحر الأبيض المتوسط . وظلت قاعدة تونس تؤدى رسالتها حتى ظهر الفاطميون واستولوا على حكم الأغالبة وسلطانهم فى تونس . إذ شاهدت بلاد المغرب بظهور تلك القوة الجديدة نشاطاً بحرياً هائلا ، قوامه تأسيس قواعد جديدة وبناء سفن حربية شامخة .

وينسب إلى عبيد الله المهدى ، أول خليفة فاطمى فى بلاد المغرب

(١) البكرى ، نفس المرجع . ص ، ٣٨ ، ٣٩ .

تأسيس قاعدة جديدة [illegible] عرفت باسم المهدية . ذلك أن المهدى [illegible] بعض جهات تونس [illegible] ساحل البحر ، على بعد ستين ميلا [illegible] البحر كهيئة كف متصلة بزند [illegible] يعرف هذا الموضع [illegible] المهدى من هذا الأمر [illegible] أنه قد توافرت له [illegible]

[illegible] لا يستطيع أحد [illegible] قاعدته الجديدة بابين [illegible] توافر لها أسباب [illegible] القاعدة ، التى اتخذها [illegible] بقوتها وأهميتها [illegible] اليوم أمنت على الفاطميين [illegible]

وتابع خلفاء المهدى فى بلاد المغرب سياسة إنشاء القواعد البحرية . ذلك أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى رأى قاعدة المهدية ، وكثرة السفن بها ، وأن دار الصناعة بها لم تعد قادرة على مواجهة مطالب الأسطول . فصمم المعز على إنشاء قاعدة أخرى جديدة ، وساعدته الظروف إذ ذاك على تدعيم قاعدة قديمة وهى مدينة سوسه . وكانت تلك القاعدة القديمة حصينة ، لأن البحر يحيط بها تقريباً من ثلاث جهات وتكثر بقربها

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، لفظ المهدية .

الحجارة التى تحميها من تدفق الأمواج . وحدث أن اكتشف فى مدينة سوسة على عهد المعز بضع مراجل (قدور كبيرة) قديمة ، لا تحتاج إلا إلى إصلاح يسير لتصبح صالحة لاستخدامها فى مياه الشرب . فأمر المعز بإصلاح تلك المراجل ، وتوصيل الماء لها ، حتى صارت مكاناً عامراً[1] ، وغدت قاعدة ثانية للأسطول الفاطمى ببلاد المغرب .

ولم يكتف المعز بذلك بل إنه فكر فى خلق قاعدة ثالثة لأسطوله فى عاصمته الجديدة التى اتخذها ببلاد المغرب والتى عرفت باسم المنصورية ، إذ قال مرة وهو فى عاصمته : لئن امتد المقام ههنا ، لنجرين البحر بحول الله وقوته فى خليج ، حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا . ولكن المعز كان إذ ذاك يستعد لفتح مصر ، وتم له الاستيلاء عليها ثم انتقاله إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، وصارت للأسطول الفاطمى قواعد أخرى جديدة فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

فى الأندلس

وكانت سواحل بلاد الأ[illegible] المطلة على البحر الأبيض المتوسط حافلة بالقواعد البحرية الكثيرة [illegible] طابعاً [illegible] فى نشاطها الحربى . فقد نشأت على طول الس[illegible] فى [illegible] النشاط ، احتشدت فيها السفن الحر[illegible] للجهاد فى سبيل [illegible]

[illegible]) وأكيلة [illegible]

[illegible]

الأندلس ، حيث تعرف المدينة الواقعة عليه باسم « قرطاجنة الخلفاء » .

وأدى وجود المرابطين فى قواعد الأندلس إلى تعزيز الأسطول هناك بجماعات شديدة البأس ، لا تعرف إلا الجرأة والمغامرة فى ميدان القتال البحرى . وتفسر تلك الظاهرة ما اتسمت به حركات الأسطول الأندلسى من أعمال البطولة أشبه بما تقوم به فرق الفدائيين البحريين فى الوقت الحاضر . ذلك أن المرابطين لم يأخذوا أجراً مقابل أعمالهم ، وإنما كانوا متطوعة وهبوا حياتهم لنصرة دينهم وإعلاء كلمته .

وساعد هذا النوع من النشاط البحرى الأندلسى على خلق قواعد بحرية زاهرة ، عامرة بكافة أسباب الراحة ومطالب الحياة . ومن أمثلة ذلك تأسيس جماعة من البحريين الأندلسيين لقاعدة بجّانة من تلقاء أنفسهم دون أية مساعدة من الجهات الرسمية فى الدولة . وكانت هذه القاعدة أصلا موضعاً بسيطاً على الساحل الأندلسى الجنوبى على مصب وادى أندرش (RioAndarax) شرق المرية . وقد أقام جماعة من البحريين الأندلسيين بالقرب من هذا المكان ، واتخذوا لهم هناك مخازن لمتاجرهم ، وأطلقوا على تلك الجهة « مرية بجانة » .

[illegible] تلك القاعدة أن اتسعت وكثرت بها الحصون بعد أن اتجهت [illegible] مرصية . وذلك منذ تولى الحكم الأمير [illegible] الحاكم الجديد لأهل تلك القاعدة [illegible] التى بلغ عددها عشرين حصناً ، اشتهر منها وادى [illegible] وعالية وبنى طارق وحصن ناشر . [illegible] لقاعدة بجانة ، إذ أمها الناس من كل

[illegible] الأسطول العربى)

حدب لإحساسهم فيها بالطمأنينة ، ولما سادها من ازدهار وعمران[1] .

واتجهت أنظار الفرنجة من جيران المسلمين بالأندلس إلى قاعدة بجانة ، يراقبونها ويعملون على إضعاف قوتها . ومن ذلك أن حاكم [illegible] من بلد الفرنجة ، هاجم بجانة فى خمسة عشر [illegible] من السفن الراسية بها ، ثم انتشر جنده [illegible] والتخريب . ولكن المرابطين من سكان [illegible] نحو الميناء للهجوم على سفن الفرنجة وقو[illegible] السلامة ، خوفاً من بطش المرابطين ، وطلب [illegible]

وعلا شأن قاعدة بجانة منذ تلك الحادثة ، وكثر [illegible] وحسنت حال من فيها ، فلحقت بكبار أمصار الأندلس ، [illegible] من قبل البحر لجل قدرها . وقد استمرت بجانة عامرة حتى سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، عند ما نقل عبد الرحمن الناصر عاصمة المنطقة المجاورة لها إلى ميناء المرية نفسه ، وصارت تلك القاعدة الجديدة من أهم قواعد الأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط[2] .

---

(١) حسين مؤنس ، أثر ظهور الإسلام فى البحر الأبيض المتوسط — المجلة التاريخية — مايو سنة ١٩٥١ — ص ١٢٣ — ١٢٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٢٦ .

دور الصناعة

[illegible] عدد كبير من دور الصناعة [illegible] الجهات التى تصلح لإقامة [illegible] قصدوا بها دار صناعة [illegible] انتشرت دور الصناعة [illegible] العربى ، فغدا مصر ، التى قامت بها [illegible] صناعة فى جزيرة [illegible] وسط مجرى النيل بالقرب من الفسطاط [illegible] صناعة فى موانيها الهامة .

وتعتبر دار الصناعة فى الروضة نموذجاً لسائر دور الصناعة الخاصة ببناء سفن الأسطول العربى ، فهى أقدم دار صناعة ، حيث يرجع وجودها إلى ما قبل الفتح العربى لمصر . ذلك أنه قام على شاطىء النيل فى المكان المعروف اليوم بمصر القديمة حصن رومانى عرف باسم حصن بابليون . بناه الامبراطور تراجان حوالى سنة مائة ميلادية للدفاع عن الديار المصرية . وكانت جزيرة الروضة ذات حصون تزيد فى قوة حصن بابليون وخطره الحربى ، لأنها تقع وسط النهر وتملك زمامه ، مما جعلها تعرف حتى بداية الفتح العربى لمصر باسم جزيرة بابليون .

وقد تطور اسم جزيرة بابليون مع نشأة الفسطاط التى اتخذها العرب حاضرة لهم فى مصر أو مركزاً للسلطة الرئيسة . فعرفت تارة باسم جزيرة الصناعة ، وتارة بجزيرة مصر ، حتى إذا ما جاء العصر الفاطمى تطور الاسم

إلى كلمة جزيرة الروضة ، بسبب جوده موقعها وقصورها وحدائقها . على ان تلك التسمية الأخيرة لم تصبح شائعة إلا فى أواخر عهد الدولة الفاطمية وقرب زوالها من مصر ، وظلت التسمية الأولى ، وهى جزيره الصناعة والتسمية الثانية وهى جزيرة مصر شائعتين طوال تلك الفترة الزاهرة من تاريخ الأسطول العربى فى البحر الأبيض المتوسط .

وكشفت أوراق البردى التى [illegible] إلى عهد ولاية قرة بن شريك على مصر عن نظام العمل فى تلك الدار وطريقة إدارتها ، مما يعتبر نموذجاً [illegible] دور الصناعة الأخرى فى شتى البلاد العربية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ذلك أن دار صناعة تلك الجزيرة [illegible] الأسطول العربى [illegible] سفنه الحربية قبل بناء دور الصناعة [illegible] عمال مصر هم [illegible] دار صناعة تونس فى بلاد المغرب [illegible] دار صناعة [illegible] مصر الأصل الذى نقل عنه العرب [illegible] التى [illegible] صناعة لأسطولهم .

وترجع أولى الروايات عن [illegible] دار صناعة جزيرة الروضة سنة ٥٤ هـ / ٦٧٣ م فى عهد ولاية [illegible] على مصر [illegible] العام السابق لقيام تلك الدار [illegible] على مدينة [illegible] وإنزالهم خسائر فادحة بالعرب [illegible] السلطات العربية تفكر فى تدعيم الدفاع [illegible] الصناعة فى جزيرة الروضة فى [illegible]

وجرى نظام العمل فيها [illegible] أوراق البردى [illegible] ثابتة دقيقة . فكان هناك [illegible]

المواد الخاصة ببناء السفن واستدعاء مهرة الصناع وغيرهم من العمال الذين تتطلبهم دار الصناعة .

فكان على دار صناعة الجزيرة سنة ٩٠ هـ ، وهو زمن أوراق البردى التى تنسب إلى ولاية قرة بن شريك مشرف عام اسمه ابن أبى حكيم ، اشتهر بحزمه وتفانيه فى إدارة العمل[1] . وتدل الأوامر التى حوتها أوراق البردى على تكاليف عدة نهض بها سكان المقاطعات المجاورة للفسطاط وغيرها من مدن الديار المصرية لتزويد دار الصناعة فى الجزيرة بشتى الحاجات . ففى أحد الأوامر الصادرة من قرة بن شريك إلى حاكم مقاطعة أفروديتى (كوم إشقو الحالية) نرى تكليفاً بإرسال نجارين وحدادين وفعلة لبناء السفن فى دار صناعة الجزيرة[2] .

وكانت الأدوات الأخرى اللازمة لبناء السفن من المسامير والحبال والأشرعة والأخشاب ترسل من مقاطعات مصر ، كل حسب قدرتها واختصاصاتها إلى جزيرة مصر . وحددت السلطات العربية أجور العمال وكذلك مقادير المواد الغذائية اللازمة لهم . وبذلك جرى العمل فى دقة ونظام تام فى بناء سفن الأسطول العربى منذ أيامه الأولى . ومما ساعد على سير العمل سيراً حسناً حرص السلطات العربية على رفع كل غبن يقع على العمال المشتغلين فى دار الصناعة ، وإعادة حقوقهم الضائعة[3] . ومن ثم أقبل الصناع على عملهم كل فى اختصاصه ، لإنتاج أعظم سفن حربية ، جعلت من الأسطول العربى أداة قوة وسؤدد لأرض العرب حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) Bell. Aphrodito papyri (J.H.S.) [illegible]

(٢) Bell. Der Islam II, 1953

(٣) Ibid. papyri No. 1408, 1369

وقامت إلى جوار أماكن بناء السفن مكتبات [illegible]
الأسطول بحاجته فى سرعة ودقة . وبجيب [illegible] كذلك [illegible]
والمشرفين على بناء السفن ، حتى صارت [illegible]
بها كافة المطالب التى يحتاج إليها السكان [illegible]
المكان الصناعى الهام معيشة المشرف العام [illegible]
الصناع والعمال .

وتوالت رعاية حكام مصر على مر العصور [illegible]
الصناعة فى جزيرة مصر (١). ومن ذلك مايروى عن أحمد بن طولون أنه
قال للمشرف العام على تلك الدار : كل ما تعمل لى من العدة يكتفى فيه
بالقليل ... إلا المراكب ، فإن البحر لا يحابى ولا يخاف سورتى ، وليس
يعمل فى البحر إلا الوثاقة والجودة فى الصنعة وتقديم الاحسان . فقدم
الحزم فى الاحتياط والاستزادة فى الانفاق على المراكب لتسلم بعون الله
عز وجل وتوفيقه من معرة البحر » .

وظلت دار صناعة الجزيرة تتمتع بالمكانة الأولى فى صدر الحكم
الفاطمى لمصر ، وذلك برغم تأسيس دار صناعة المقس ، التى ينسب تشييدها
إلى الخليفة المعز لدين الله . وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين دار
الصناعة الجديدة بقوله : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسنا »(٢)
ولكن يبدو أن تلك الدار الجديدة أخذت تحتل مكانة دار صناعة الجزيرة ،
التى تحولت آخر الأمر إلى بقعة للنزهة والتريض .

(١) البلوى ، سيرة أحمد بن طولون (نشرها محمد كرد على) ، ص ٢٠٨ .
(٢) المقريزى ، خطط ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

[illegible]

[illegible] التى تطلبتها
الأ[illegible] التى وجدها
[illegible] الصناع العرب
أن [illegible] بصفة خاصة ، وهم
[illegible] استخدام علم الهندسة
فى عملهم .

وعبر ابن خلدون فى مقدمته عن تقدم صناعة النجارة الخاصة ببناء السفن
قائلا : وقد يحتاج إلى صناعة النجارة فى إنشاء المراكب ذات الألواح
والدسر ، وهى أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت ، واعتبار سبحه
فى الماء بقوادمه وكلكله ، ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء ،
وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح ، وربما
أعينت بحركة المقاذيف كما فى الأساطيل »(١)

واهتمت السلطات العربية بتوفير المواد اللازمة لبناء سفن أسطولهم ،
وأهمها الأخشاب والمسامير ، اللذين اعتمدت سفن البحر الأبيض المتوسط
خاصة عليهما . فكانت أخشاب لبنان وبلاد المغرب وأسبانيا تنظم بحيث
تساعد على نقلها إلى دور الصناعة . وفى نفس الوقت اهتمت السلطات
المحلية فى بعض البلاد الفقيرة فى أخشابها ، مثل مصر ، على تنمية ثروتها
من الغابات لتساعد على حركة بناء السفن . فكان أغلى أصناف الخشب

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، فصل فى النجارة .

في مصر الذي تصنع منه المراكب هو شجر النبج (اللبخ) ، الذي ينبت بمدينة أنصنا[1] .

واشتهر هذا النوع من الشجر لطول الألواح التي يمكن أن تؤخذ منه، « ويباع اللوح بخمسين ديناراً أو نحـــوها . وإذا شد لوح بلوح ، وطرحا في الماء ستة أيام صارا لوحاً واحداً » . واستوردت البلاد العربية الأخشاب من الخارج ، فكانت البندقية بإيطاليا تمد العرب في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، بالخشب لبناء السفن . وكان أمبراطور الروم يحتج لدى السلطات الحاكمة في البندقية ويطلب منها إيقاف تصدير الأخشاب للعرب زمن الحروب بينهما .

وكانت الأخشاب تشح في مصر نتيجة تلك السياسة العدائية ، ولكن السلطات المصرية نظمت [illegible] ذلك أنه حدث في عهد الخليفة [illegible] أن [illegible] الأخشاب إلى مصر [illegible] إذ ذاك لحرب الروم [illegible] على بناء الأسطول أمر [illegible] كبـــار كانت مسقفة [illegible] البيمارستان[2] الذي في سوق [illegible] الأحمر[3] .

واشتهرت السفن الحربية [illegible] إذا ما قابلت ريحاً مضادة [illegible] من أخرى

---

(١) المقريزي ، خطط [illegible]

(٢) البيمارستان ، هو [illegible]

(٣) المقريزي ، خطط ، ج ٢

خفيفة الحركة لخدمة الأسطول ، ومساعدة سفنه الكبرى . واشتهر من أنواع تلك السفن الحربية إبان عصر الأسطول العربي الزاهر الوحدات التالية :

الشواني :

كانت أهم قطع الأسطول ، والواحدة منها تسمى شيني أو شونة ، وتمتاز بالطول ، تجذف بمائة وثلاثة وأربعين مجذافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، حتى صارت أشبه بالقلاع البحرية تحاصر العدو وترميه بالنفط ، وتحطم سفنه بقوتها . واحتوت تلك الشواني على مخازن للقمح وصهاريج للماء العذب ، حتى تساعد بحارتها وجندها على البقاء أطول مدة ممكنة في عرض البحار .

الغربان :

وهي سفن حربية لا تختلف عن الشواني ، وإنما سميت بهذا الاسم لأن الواحدة منها تنتهي في مقدمة هيكلها شكل رأس الغراب . واشتهرت هذه السفن بالبأس الشديد وإنزال الرعب في قلوب الأعداء .

الحراريق :

وتعرف أحياناً باسم الحراقات ، لأن السفينة منها أو الحراقة اختصت بقذف العدو بالأسلحة النارية وأنابيب النفط . وكانت الحراقات تقل عن الشواني في الحجم ، وتمتاز بوجود المنجانيق عليها لقذف العدو بالنار المحرقة

الشلنديات :

وهى مراكب حربية كبيرة لا تقل أهمية عن الشوانى [illegible]
ولكنها تختلف عنها فى أن الواحدة منها أو الشلندى [illegible] تحمل المقاتلة
والسلاح . وتستخدم كذلك فى نقل البضائع

البطس :

وتختص تلك السفن بنقل الجند المحارب ، فضلا عن الأزواد والذخيرة
وكانت الواحدة منها أو البطسه عظيمة البناء ، تشتمل على عدة طبقات ، يشغل
كل طبقة منها فئة معينة من الجند بأسلحتها ، وتسيرها قلوع كثيرة تقدر
بأكثر من أربعين قلعاً .

القراقير والحمالات :

وهى سفن كانت مهمتها الأساسية نقل المؤن والذخيرة للأسطول .
واقتصرت القراقير فيما بعد على حمل المؤن ، على حين اضطلعت الحمالات
بنقل الذخيرة .[1]

توابع الأسطول :

واشتمل الأسطول عدا تلك القطع الكبيرة على سفن أخرى عديدة
أقل حجماً ، ولكن أهميتها عظيمة . ومن ذلك « الطرادات » جمع « طراده »
أو « طراد » ، وكانت سفن صغيرة على هيئة البراميل ، بدون سطح ؛

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥٢٣ ،
Kindermann, schiff, 3 - 10

[illegible] شباك »
و[illegible]
أو « شباك » ، ومنها [illegible] الأسطول الصغيرة [illegible] قلاع ،
وأحياناً تسير بالمجاذيف [illegible] والقوارب
والزوارق ، [illegible] صغيرة تستعمل [illegible] تستخدم فى نقل
الأشخاص[1]

وبذلك كان الأسطول العربى [illegible] الحربية [illegible] والصغيرة ، وغيرها
من المراكب الصغيرة اللازمة للملاحة [illegible] تلك السفن كبيرها
وصغيرها بالجودة التامة فى الصنع ، وحسن الاعداد ، ولاسيما من حيث
معدات القتال الموجودة على ظهرها . وقد امتدح الروم سفن الأسطول
العربى وأعجبوا بحسن نظامها ، وطريقة جريانها عبر المياه ، وشهدوا بتفوقها
على سفنهم فى بعض الأقوال

ولم تذكر لنا المراجع شيئاً يستدل منه على أن بناء السفن الحربية كان
ضعيفاً ، وإنما ترد الأقوال والروايات تباعا بما يؤكد مهارة الصناع العرب ،
وتفانيهم وإخلاصهم فى عملهم . وقد ظلت سفن الأسطول العربى النماذج
التى احتذاها الغرب فى بناء أساطيله فيما بعد .

(١) ماجد ، نظم الفاطميين ٢٣١ — ٢٣٤ ؛
عباده ، سفن الأسطول الاسلامى ، ص ٤ — ٧ ؛
Dozy, Suppl, I, p. 723 .

الفصل السابع

قيادة الأساطيل

أمراء البحار

سارت الأساطيل العربية سيرها المظفر فى مياه البحر الأبيض المتوسط بفضل القيادة الماهرة ، التى تولاها عدد من خيرة أمراء البحار العرب . فمنذ خرجت السفن العربية إلى عرض مياه البحر الأبيض المتوسط والتنافس يشتد بين قادتها على التفانى فى [illegible] فى سبيل الحصول على النصر . ومن [illegible] من أمراء البحار العرب جنادة بن أمية الأزدى وبـ[illegible] من بنى فزارة .

واشتهر عبد الله بن قيس [illegible] وجرزهم ، حتى بلغ عدد [illegible] ولا خوف . فكان [illegible] مفاجآتهم وإنزال [illegible] الأمثلة على تفانى أمراء [illegible] ابن قيس حتفه حين خرج [illegible] استطلاع [illegible] موانى الروم . وكان عبد الله متخفياً [illegible] التجار ، ونزل على المرفأ دون أن يتنبه إليه أحد .

ولكن بعض الصدفة كشفت عن شخصية عبد الله بن قيس ، إذ حدث أن كان على الميناء بعض الشحاذين ، وتقدمت إمرأة منهم تستجدى منه صدقة، فأعطاها وأجزل لها العطاء ، مما أثار ريبتها واستلفت نظرها . فهرولت إلى حراس الميناء . وقالت لهم إن عبد الله بن قيس بالميناء ، مما يدل على شدة بأسه وسطوته وأنه كان موضع حديث سكان موانى الروم . وأسرع جند الروم إلى الميناء وهاجموا عبد الله بن قيس . وقد هرب الملاح العربى المرافق له ، وجرى إلى المركب وأخبر أصحابه بما حدث . وكان سفيان ابن عوف الأزدى خليفة عبد الله على المركب ، فجهد فى مناوشة جند الروم ليشغلهم ويمكن لاطلاق سراح أمير البحر العربى . ولكن باءت تلك المجهودات بالفشل . وعادت سفينة الاستطلاع بعد أن قتل عبدالله بن قيس . ويروى أن المرأة المستجدية سئلت بعد ذلك عن الطريقة التى اكتشفت بها شخصية أمير البحر العربى فقالت : إنه كان كالتاجر ، فلم أعرف عنه شيئاً فى مبدأ الأمر ، ولكن حين سألته ، أعطانى كما يعطى الملوك ، فأدركت أنه عبد الله بن قيس [1] .

ونتيجة الحملات المتكررة التى قام بها الأسطول العربى فى مياه البحر الأبيض المتوسط أخذت تتحدد اختصاصات أمراء البحار وواجباتهم والمهام الملقاة على عاتقهم ، وأصبحت كل وحدة من وحدات الأسطول العربى معدة إعداداً تاماً من حيث [illegible] ومعداتها وذلك وفق نظم جعلها تنفذ تعليمات أمير البحر بدقة تامة . ولكل سفينة حربية عدد من « النواتية » أو البحارة الذين يخضعون لكبيرهم الملقب بالرئيس أو « الريس » كما يعرف بذلك فى اللغة العامية اليوم . ويتولى الريس مع رجاله تدبير أمر جريان سفينته

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ج ٥ ، ص ٥٣ .

بالريح أو المجاذيف ، وكذلك مهمة إبحار السفينة وإلقاء مراسيها . وإلى جانب النواتية كانت هناك فرق الجند المعدة للقتال البحرى ، وتعمل تحت إمرة القائد ، الذى يضطلع بإعداد الأسلحة ، والإشراف على العمليات الحربية[1] .

وكان أمير البحر الذى يتولى رئاسة السفن الحربية جميعها هو المسئول عن إدارة المعركة وسلامة جنده ، ومن ثم أطلق عليه أحياناً اسم « رئيس الأسطول » أو « المقدم » . واهتمت السلطات العربية بإجابة مطالب أمراء البحار التابعين لها وإعطائهم مطلق الحرية فى إعداد حملاتهم بسبب خطورة حرب البحار . وبلغ عدد قادة الأسطول العربى فى العهد الفاطمى مثلاً عدداً كبيراً ، واشتهروا بمقدرتهم الفائقة ، وخبرتهم الواسعة فى ميدان البحار[2] .

وقد ورد بيان لسلطات أمراء البحار ونوع اختصاصاتهم فى وثيقة بعث بها أحد الخلفاء إلى أمير بحر على إحدى الموانى ، إذ اشتملت على حق أمراء البحار فى اختيار رجال الأسطول ومعاملتهم ، والإشراف على بناء السفن ومراسيها ، ومسئوليتهم عن قلم المخابرات البحرية التابع لهم . وهذا هو نص أمر التكليف لأمير البحر :

هذا ما عهد أمير المؤمنين إلى فلان حين ولاه الثغر الفلانى وبحره ومراكبه : —

أمره بتقوى الله وطاعته والحذر من عقابه واتباع مرضاته وإيثار الحق فى جميع أفعاله .... وأمره بتعهده نفسه حتى يقسم أودها ويننى بذكر الله

(١) ابن خلدون ، المقدمة (قيادة الأساطيل) .

(٢) المقريزى ، خطط ، ج ١ ص ٤٨٣ .

القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٥٢٣ .

الهوى وزيغ الشيطان عنها ، وأن يزكى [illegible] ويطهرها ويهذب سيرته ويثقفها ، ويكون لمن معه من الجند وسائر الأولياء فى الخير إماماً ومعلماً ، وعلى سلوك أفضل المناهج حاضاً ومقوماً ، [illegible] أن يلين لأهل الطاعة ، ويشتد على ذوى المعصية ، ويعطى على كل [illegible] يستحقها من النصفة والمعدلة .

وأمره أن يكون الإذن عليه لمن معه من جنده مبذولاً والوصول إليه من ذوى الحاجات والظلامات سهلاً يسيراً .

وأمره أن يستعمل على مراكبه [illegible] عفته وعفافه ويثق بجزالته وصرامته وشدته على أهل الريب والمعاندة .

وأمره أن يعرض [illegible] جنده على [illegible] ويطلع على حقيقة أمرهم ويلزم مراكبهم ، وأمره أن يشرف على مراقبة [illegible] حتى يحكم أمر المرتبين فيها ، [illegible] أرزاقهم ولا يتأخر عنهم [illegible] فيها .

وأمره أن يتفقد أمر المراكب المنشأة حتى يحكمها ويجود آلاتها ويتخير الصناع لهـا ، ويشرف على ما كان منها فى الموانى ويرفعها من البحر إلى الشاطىء فى المشاتى وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها .

وأمره أن يكون نواشيره وعيونه الذين يبعث بهم ليعرف أخبار عدوهم من ذوى الصداق والنصيحة والدين والأمانة والخبرة بالبحر ومواينه وداخلاته ومخابيه حتى لا يأتوا إلا بالصدق من الخبر والصحيح من الأثر — وإن رهقهم من مراكب العدو مالا قوام لهم به انحازوا إلى المواضع التى يعرفونها ويعملون للنجاة بالانحياز إليها .

وأمره ألا يدخل فى النفاطين والنواتية والقذافين ولا فى غيرهم من ذوى الصناعات والمهن فى المراكب إلا من كان طباً ماهراً حاذقاً صبوراً معالجا

وأن يكون من يحمله معه فى المراكب أفاضل الجند وخيار الأولياء أصدق نية واحتساباً وجرأة على العدو وارتكاباً .

وأمره أن ينظر فى صناعة المراكب نظراً استكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمشاقة والزفت وغيره حتى يحكمها [illegible] المراكب وتأليفها وقطعتها وتركيبها ، ويستجيد [illegible] ويتخير [illegible] والقلوع وينتخبها . ويميز النواتية [illegible] والحنكة والتجربة من جميعهم حتى [illegible] لا [illegible] من يكون غيره أحق بالعمل [illegible]

وأمره أن يتحرس من [illegible] العدو [illegible] فى [illegible] الأسلحة أو شىء من أدوات الحرب [illegible] من أرض الإسلام ، أو أن يطلق لأحد من التجار حمل شىء إليهم [illegible] إلى بلدهم [illegible] وجده قد أقدم على هذا وما جانسه [illegible] عقوبة [illegible] نكالا وعظة .

وأمره أن يضم المراكب [illegible] من يثق بنصيحته وتشاهده [illegible] فى كثير من الأوقات [illegible] متعاهدة مصونة إلى [illegible] من النفط والنفسان [illegible] الآلات [illegible] وأوعيتها ويأمن [illegible]

وأمره بشدة الحذر [illegible]

مدينة من يعلم حالها ، ولا يطلق لأحد من البوابين والحرس أن يدخلها إلا من يعلمون حاله وسبيل مدخله وصورته ومغزاه وإرادته .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك وأمره إياك . فافهم واعمل بما حده ورسمه ، وكن عند حسن ظنه بك فى جميعه ، وهو يسأل توفيقك وإرشادك إلى ما فيه الخيرة فى جميع ما أسنده إليك واعتمد فيه عليك[1] » .

(١) انظر Muhammad Hamidullah, Muslim conduct of State حيث نقل هذا النص من كتاب الخراج ، لقدامة ، وهو مخطوط فى مكتبة استنبول .

معدات الأسطول

الأسلحة البحرية :

كانت الأسلحة البحرية التى تزودت بها سفن [illegible] تشبه الأسلحة التى استخدمتها القوات البرية [illegible] حرب البحار . فكانت الأسلحة الرئيسية [illegible] تشد بواسطة اليد أو الرجل . وقد جاء [illegible] إذا كان القتال « فى البحر المالح » فينبغى أن يكون [illegible] قرنه ، وتكون القوس طويلة السيات [illegible] الوتر لا متسع ولا ضيق ، فإن فى ذلك [illegible] [1] .

وكان يلى القسى فى الأهمية المجانيق التى تزودت بها السفن وكذلك العرادات[2] . والمنجنيق آلة من خشب لها جانبان بينهما عمود طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تكون كفة المنجنيق التى يوضع فيها الحجارة أو المواد التى يراد قذفها على العدو . ويعمل هذا العمود بواسطة حبال ولولبية ، حيث يشد طرف العمود الذى به الكفة حتى ترتفع أسافله على عاليه ، ثم يترك الحبل فيرتفع الذنب الذى به الكفة ، مما يؤدى إلى اندفاع الحجارة أو غيرها من المواد اندفاعا شديداً صوب العدو .

والعرادة أصغر من المنجنيق ، وتستخدم فى رمى الحجارة وكذلك

(١) التدبيرات السلطانية ، ص ١٢ .

(٢) المقريزى ، خطط ، ج ١ ، ص ٤٨٠ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج [illegible] ، ص ١٣ .

السهام البعيدة المرمى ، وقدور النفط وغيرها من المواد الملتهبة . وزودت كل سفينة [illegible] من « الكلاليب »[1] ، [illegible] عندما تدنو منها سفن الأعداء [illegible] الكلاليب [illegible] الأعداء ثم يشدونها إليها [illegible] لقتال العدو . وكان [illegible]

[illegible] صناديق مفتوحة من [illegible] الأقواس من سفن العدو [illegible] الصندوق ، ثم ترمى سفن الأعداء [illegible] الصناديق . واستخدم [illegible] ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ [illegible] غبار هذا المسحوق [illegible]

[illegible] تسمى « اللجام » ، وهى حديدة طويلة [illegible] جداً ، وأسفلها [illegible] كسنان الرمح ، تدخل من أسفلها خشبا كالقناة بارزة فى مقدم السفينة يقال لها « الاسطام » ، فيشبه « اللجام » سنان رمح بارز من مقدم السفينة[2] . واستخدمت هذه الآلة فى أحداث خرق فى سفن الأعداء ، يؤدى إلى تدفق الماء فيها وإغراقها .

النار [illegible]

غير أن أهم سلاح استخدم فى المعارك البحرية ، ولم يعرف العرب سره

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

فى مبدا قتالهم فى البحر الأبيض المتوسط هو « النار البحرية » ، التى استخدمها الروم وزودوا بها أساطيلهم . وتنسب الروايات اكتشاف هـذه « النار البحرية » إلى رجل من مواطنى مدينـــة هليوبوليس بالشام ، هاجر إلى القسطنطينية عندما استولى العرب على بلاده . وكان هذا الرجل من حذق أعمال الهندسة والكيمياء[1] ، واستطاع أن يصل إلى اختراع النار البحرية فى الفترة التى كانت فيها الأساطيل العربية تحاصر مدينة القسطنطينية . وكان الروم يتلهفون على أى سلاح يساعدهم فى القتال [illegible] هذا السلاح الجديد الذى أطلقوا عليه [illegible] البحرية [illegible] ضد السفن فى البحار . ولم تطفئها المياه [illegible] زاد اشتعال النار كلما ألقى عليها الماء .

واستطاع الروم الاحتفاظ [illegible] وعرفت باسم « النار الإغريقية » [illegible] فكانت أهم الوصايا التى يلقنها الأمبر[illegible] مقاليد الأمور ، هى الاحتفاظ [illegible] فى مؤلفاته بما قد يكشف عن [illegible] وحى الله وإلهامه . ثم أن دولة الروم [illegible] المفرقعات أو السفن المجهزة بقذائف [illegible] سر تركيبها .

غير أن العرب لم يقفوا مكتوفى [illegible] السلاح [illegible] وأقبل علماؤهم فى الكيمياء [illegible]

---

(1) Gibbon, op cit II, 796

بمالا يختلف عما ذكره أحد كتاب الروم ممن وصف تركيب تلك النار فى القرن العاشر الميلادى ، إذ قال : « إذا أخذت كبريتا نقيا من حامض الطرطريك والصمغ الفارسى والقار الخام والنترات ، ثم مزجت الخليط معا ، وغمست فى هذا الخليط نسيج الكتان ، ثم أشعلت فيه النار انتشر اللهب فى الحال ، وتطفىء هذه النار الرمل فقط أو الخل » .

ثم تطور هذا السلاح فيما بعد وظهر منه نوع أشبه بالمفرقعات ، وكانت تتكون من وحدات [illegible] منها تحوى رطلا من الكبريت المسحوق مع رطلين من الفحم [illegible] أو ست أرطال من نترات البوتاس وملح البارود ، ثم توضع [illegible] فى [illegible] صفة محكمة أشبه « بالخرطوشة » تغطى [illegible] وتقذف فى الهواء بواسطة المجانيق ، [illegible] انفجارا [illegible] يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف[1] . غير أن النار التى [illegible] السفن الحربية ، فكانت عبارة عن أنابيب من النحاس تقذف من مقدمة المركب . وكانت توضع على مقدمات السفن تماثيل تصور مناظر الأسود وغيرها من الحيوانات الضارية ينبعث من أفواهها النار التى تلقى على سفن الأعداء[2] .

وظهر تقدم الأسطول العربى فى استخدام هذا السلاح الجديد خلال العصر الفاطمى ، الذى يمثل أوج مجد ذلك الأسطول . وقد أشاد الكتاب والشعراء المعاصرون بقوة هذا السلاح البحرى ، وكيف أنه جعل من سفن الأسطول الفاطمى [illegible] الروم . ثم أن المراكب الفاطمية كانت

---

(1) Bury, op cit II, 319 ; Oman. History of War 46, 47

(2) Gibbon, op cit. 797

تحتمى من نار العدو وقذائفه بتغطية هيكلها [illegible] يسمى « لبوس » عليه غطاء يسمى « لبود » من جلود البقر [illegible] أو من [illegible] على حين يحتمى رجال الأسطول من الحريق [illegible] (١)

ويشهد هذا التقدم الباهر الذى أحرزه [illegible] البحرية واستخدامها كذلك بقدرة العلماء العرب [illegible] السلطات العربية لم تدخر وسعاً فى الإنفاق [illegible] رجال الكيمياء بما يحقق للبلاد الهيبة [illegible]

---

(١) ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ٢٢٧ .

المناورات البحرية

[illegible] إعداد السفن الحربية [illegible] وتكشف لنا [illegible] الأساطيل العربية لأنها [illegible] كذلك النموذج الذى [illegible] الأخرى المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

[illegible] فى الدولة الفاطمية [illegible] إعداد الأساطيل للغزو أن يقوم [illegible] ديوان الجهاد ، بجمع الجند للأسطول [illegible] ولم يتردد أولئك النقباء فى تجوال البلاد طولاً وعرضاً [illegible] هذا النوع من الجند ، الذى [illegible] الفاطمية فى عطائها لرجال الأسطول [illegible] « النفقة » فى المقاتلة ، بحضور الخليفة [illegible] فيجتمع الجند مائة مائة ، [illegible] المال بينهم بالوزن وليس بالعد .

[illegible] الأسطول يقام احتفال [illegible] يسمى « المودعة » ويحضر الخليفة ومعه الوزير والأعيان إلى ساحل المقس ، وهو ميناء يقع على ساحل النيل خارج القاهرة (محل جامع أولاد عنان الآن) حيث

تجتمع المراكب وهى مزينة بأسلحتها ولبودها وما فيها من المنجنيقات ، ثم تقوم هذه المراكب ، أمام الخليفة وجموع الحاضرين بالحركة كما تفعل تماماً فى حالة القتال . وبعد انتهاء المناورات يدعو الخليفة للأسطول بالنصر والسلامة ، ويمنح بعض الهدايا والخلع إلى رئيس الأسطول والقواد .

وبعد أن تتجمع السفن بالميناء المخصصة للغزو يصدر أمير البحر أوامره للرؤساء بالإبحار ، وكانت المهمة الأولى التى يضطلع بها أمير البحر فى تلك المرحلة هو إخفاء أسطوله [illegible] الطرق حتى يتقى إغارات سفن الأعداء ، وليستطيع اتخاذ المراكز التى تكفل له [illegible] . ومن التعليمات التى اتبعها أمير البحر لإجادة التخفى [illegible] ألا [illegible] ناراً ، ولا يشعل مصباحاً ، ولا [illegible] لا [illegible] الأ[illegible]) . وإن اشتد الخوف عليه [illegible] لا تظهر من بعد[1] » .

وكانت تعبئة الأ[illegible] أشبه بالجيش البرى [illegible] إذا حاول العدو الاقتراب [illegible] كانت سفن الأسطول [illegible] وتغرقها .

غير أن الأساطيل [illegible] فى المعارك أثبتت أنه [illegible] ذلك أن السفن [illegible] عمدت إلى الاقتراب من مراكب الأ[illegible] إليها بواسطة الكلاليب ، ثم

---

(١) الحسن بن عبد الله [illegible]

وضع ألواح بين جوانب السفن ، أشبه بالجسر ، بحيث تمكن للجند العرب الانتقال إلى العدو ومحاربته وجهاً لوجه ، على نحو ما حدث فى وقعة ذات الصوارى .

وهذا الفن الحربى من قتال البحر يكشف عن ملكات العرب الفذة ، وقدرتهم على الاستفادة من النظم الحربية القديمة . ذلك أن محاربة العدو على ظهـــر سفينته من ابتكار روما حين اصطدمت مع قرطاجنة سنة ٢٦٠ ق . م . فقد تخلى الرومان فى تلك المعارك عن طريقة دق أو قطع مجاذيف الأعداء ، والاستعاضة عن ذلك باتخاذ نوع من الكبارى الطويلة (أو كما سميت باسم Corvus) القابلة للرفع ، تشدها بكرة إلى سارية المركب ونهايتها خطاطيف تثبت بواسطتها فى سفن الأعداء حين تقترب منها ، ثم ينتقل الجند عليها إلى العدو[1] .

[illegible] عدة تحسينات على هذا الفن الحربى ، الذى ابتكره الرومان [illegible] الروم عن الاستفادة منه . إذ كان الروم [illegible] الأساطيل العربية ، ويجتهدون قدر طاقتهم [illegible] البعض الآخر . ومما حفز العرب على [illegible] الملاحة فى تلك العصور الوسطى ، حيث اعتمدت [illegible] على الرياح فكانت السفن الحربية تواجه أحياناً رياحاً [illegible] من ناحية لا تتفق مع خططها ، على نحو قول المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

واعتمد أمراء البحار العرب فى تلك الحالات التى تركد فيها الرياح

---

(١) [illegible] الأسبانية ج ١ ص ٤٤٢ — ٤٤٣ .

على تسيير سفنهم بقوة المجاذيف ، ووضعها [illegible] التى تكفل لهم النصر . على أن الفوز فى تلك المعارك لم يكن سهل المنال [illegible] فى البحر شديد صعب عسر ، لأمور منها أن القتال [illegible] السهام والأحجار تخطىء ، وكل رشق ينكى ، ومنها [illegible] أو سكونها عند وقت الحاجة إليها ، ومنها [illegible] إن اقتضت المصلحة ذلك ... — ولهذا فإن [illegible] البر ، والنرد وضع لتمثيل حرب البحر ، فإن صاحب [illegible] فى المواضع الجيدة واحترز ، فإذا جاءت الفصوص [illegible] لم ينتفع باحترازه ، وبطل عليه تدبيره كاختلاف [illegible] البحر[1] » .

ومن ثم حرص أمراء البحار العرب على [illegible] الروح المعنوية فى نفوس جندهم ، لأن حرب البحر « لا منجى منه [illegible] إلا بصدق القتال[2] » وقد دارت معارك الأسطول العربى [illegible] عباب مياه البحر الأبيض المتوسط طوال عصرها الزاهر [illegible] الفياضة والروح المعنوية العالية ، وخلفت وراءها [illegible] من البطولة الرائعة والسيرة الحسنة ، التى تساعد العرب [illegible] مجدهم البحرى التليد .

(١) الحسن بن عبد الله ، نفس المرجع ، ص ١٩٥ .
(٢) الحسن بن عبد الله ، نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

[illegible]

ابن إياس [illegible] بولاق ١٨٩٤)
البكرى [illegible] إفريقية والمغرب (١٩١٢)
البلاذرى [illegible]
الحميرى [illegible] ١٢٩٥ هـ
ابن حوقل [illegible]
ابن خلدون المقدمة
السلاوى الاستقصا لأخبار [illegible]
السيوطى [illegible]
شكيب أرسلان [illegible]
الطبرى [illegible]
ابن [illegible]
عبد الفتاح عبادة [illegible] الأسطول الإسلامى [illegible]
ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار [illegible] (ليدن ١٨٤٨٧)
القلقشندى صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (القاهرة ١٩٢٢)
ماجد ، دكتور . نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر (١٩٥٣)
المالكى . رياض النفوس (نشره الدكتور حسين مؤنس)
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة

محمد كرد على : خطط الشام

محمد المنجلى : التدبيرات السلطانية (مخطوط)

المسعودى : مروج الذهب (مصر)

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن)

المقريزى : الخطط (بولاق)

النعمان : المجالس والمسايرات (مخطوط)

ولز : معالم تاريخ الإنسانية (ترجمة عبد العزيز جاويد)

ياقوت : معجم البلدان

اليعقوبى : كتاب البلدان (ليدن)

المراجع الأوربية

Bell, H. I. , The Aphrodito papyri (Der Islam).

Brehier, L , Vie et Mort de Byzance (1949).

Cedrenus , Annales (1566).

Dozy , Supplement au Dictionnaire Arabes.

Finaly , History of Greece (1877).

Fournel , La Conquête de L'Afrique.

Gibbon , The History of the decline and fall of the Roman Empire (1923).

Hill, G. , A History of Cyprus (1940).

Hitti , History of the Arabs (1940).

Kinderman , Schiff.

Kremer , Orient under the Caliphs.

Lammens , La Syrie (1921).

Le Strange , Palestine under the Muslems (1890).

Mercier , Histoire de L'Afrique (1888)

Muhammed Hamidullah, Muslim Conduct of State (1945).

Muir , The Caliphate (1942).

Runciman , Byzantine Civilisation (1933).

Semple, E. , The Geography of the Mediterranean Region

Vasiliev , Byzance et les Arabes (1935).
Histoire de L'Empire Byzantin.

الفهرس [illegible]

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر الدسوقي
رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

صدر منها :

١ — قصة الملكية في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور حسن سعفان.

٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى
تأليف الدكتور محمد غنيمى هلال.

٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر.

٤ — [illegible] : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان.

٥ — الصحافة [illegible] : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .

٦ — قصة الزواج والعزوبة في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى.

٧ — تاريخ الفكر الاقتصادى : من سلسلة الاقتصاد السياسى
تأليف الدكتور لبيب شقير.

٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .

٩ — ابن خلدون منشئ علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى.

١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة .

١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة : تأليف الدكتور طعيمة الجرف .

١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن). من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى

١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور [illegible]

١٤ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .

١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .

١٧ — مونتسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سعفان .

١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .

١٩ — مع الصحفى المكافح: « أحمد حلمى » : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى .

٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثانى) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .

٢١ — من قضايا اللغة والنحو : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ على النجدى ناصف

٢٢ — الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور ابراهيم احمد العدوى .

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية بإشراف الأستاذ عمر الدسوقى رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

الكتاب التالى من السلسلة التاريخية

(بعض مؤرخى الاسلام)

بقلم

الأستاذ على أدهم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر